جامعة: جنوب الوادى-فرع الغردقة

كلية التربية

محاضرات فى مقرر البلاغة العربيَّة

"علم البيان"

الفرقة: الأولى عام لغة عربية

إعداد/

قسم اللغة العربية

٢٠٢٢م/٢٠٢٣م

بيانات المقرر

الكلية: التربية بالغردقة.

الفرقة: الأولى.

التخصص: عام لغة عربية.

التاريخ: ٢٠٢٢م-٢٠٢٣م.

عدد الصفحات: ١٦٩ صفحة.

عدد ساعات المقرر: ٦ ساعات.

الإعداد: قسم اللغة العربية.

****

مقدمة:

علوم البلاغة ثلاثة من علوم العربية تتداخل معها وتتكامل؛ إذ من شروط البلاغة «توخّي الدّقة في انتقاء الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعات من يكتب لهم أو يلقى إليهم» ومردّ البلاغة عموما إلى الذّوق، وتعنى الفصاحة بالمفرد عنايتها بالتركيب، لهذا روعيت قواعد الصرف والنحو والصوّت في سلامة النطق، وخلوّ المفرد من تنافر الحروف، وبعده عن الحوشيّة والغرابة ومخالفة القياس اللغوي، وكان من شروط فصاحة المركّب سلامته من ضعف التأليف، ومن التعقيد اللفظي والمعنوي، بهذا كلّه عدّت البلاغة أكمل علوم اللغة وأغناها وأدقّها فائدة، وما بين يديك عزيزى الطالب مقرر في علم البلاغة العربية، وتحديدًا في: "علم البديع"، وقبل الولوج في المنهج تم إلقاء الضوء على علوم البلاغة وقيمتها، والهدف من دراستها، والفرق بين الفصاحة والبلاغة، و...إلخ.

مما ستجده مبثوثًا في طيَّات هذا المقرر، وهذا من صميم المقرر، ثم تجد في نهاية المقرر ثبتًا بأهم المصادر والمراجع التى أرجو أن تطلع على بعضها، وقد قُسم المقرر إلى عدة فصول، وفى نهاية كل فصل ستجد بعض التمرينات على ما سبق، والحق أن هذا الجهد المبذول اعتمدتُ فيه اعتمادا كبيرًا جدًا على مُؤَلفٍ عظيم وسهل المأخذ، في علوم البلاغة، لعالميْن جليليْن ابتغيا به وجه الله، هما: الدكتور/ محمد أحمد قاسم، والدكتور/ محيى الدين ديب، وهما أستاذان في علوم البلاغة، نفع الله بهما طلاب العلم.

وفقكم الله وسدد خطاكم

توطئة:

نشأتْ علوم البلاغة لخدمة النصّ القرآني المعجز الذي كان، ولا يزال شغل الدارسين الشاغل؛ فهو النصّ الذي تحدّى بلاغة القوم فاحتاج إلى دراسات تشرح إعجازه، وتبيّن مجازه، وتجلو حقيقته وكناياته ولطيف إشاراته، من هنا هذا الكمّ من الكتب البلاغية التي تناولت النصّ الشريف ككتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة ومعاني القرآن للفرّاء، وكتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وكتاب النكت في إعجاز القرآن للرمّاني، وكتاب بيان إعجاز القرآن للخطّابي، وكتاب إعجاز القرآن للباقلّاني، وآخر بالعنوان نفسه للقاضي عبد الجبّار، وصولا إلى كتاب دلائل الإعجاز للجرجاني، هكذا شغل القرآن الكريم الدارسين، ولهذا جعل أبو هلال العسكري تعلّم البلاغة فرضا على من يريد التعرّف إلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذهب إلى القول: «إن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله»، من علوم البلاغة تتشكّل الصورة الفنّية في الشعر كما في النّثر.

لهذا كانت البلاغة زاد الناقد في عملية تفكيك النّصوص بحثا عن جماليّة الصورة، وعناصر التخييل، والخطبة كالقصيدة لا تخلو من الصور الجمالية، يلجأ صاحبها إلى التحسين والتزيين شأن الشاعر الذي ينفر من المباشرة، ويفزع إلى التشكيل الجميل، ومن أجل هذا التكامل قدّم هذا المقرر مادّته، ولم يجعل التقعيد هدفًا أسمى له، بل سعي إلى توظيف القاعدة في الكشف عن أسرار الصورة، وتبيّن عناصرها، وكشف جماليّتها لتقوية الذائقة الفنّية والنقدية عند المتلقّي "الطالب"، فالقاعدة لم تعد جسدا بلا روح، بل جعلتها الأمثلة المشروحة جسما نابضا فاعلا من طريق الاستقراء الذي يعمل

على جلاء اللعبة الفنّية التي اعتمدها المبدع، لهذا كلّه يجب أن تتذوق من خلال دراستك ما يلى من الصفات التى ستجدها، ومنها:

أ. العناية بالجانب التراثي من علوم البلاغة إذ لا يجوز أن يبقى الدرس البلاغي بمنأى عن جهود الروّاد الأوائل، وأن تبقى مصنّفاتهم مغيّبة عن أجيالنا.

ب. تأمين التواصل بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة التي انتحت منحى جديدا في الكشف عن أسرار الصور البلاغية، فكان من الضرورى الاستفادة من هذه الدراسات الجادة والحسنة، بالقدر الذي يغني ولا يعقّد.

ج. اهتمام بالمصطلح البلاغي، إذ توقّف باستمرار عند حدّه اللغوي القاموسي، فالاصطلاحي وربط بين الدلالتين محدّثا التحليل والتعليل معصرنا الدرس البلاغي.

د. وفرة الشواهد المنتقاة بدقّة لتكون مختلفة مبنى ومعنى، وتأسر الأسماع، وتخلب القلوب، وتحبّب بالدرس البلاغي، هذه الشواهد هي في الأساس أسّ الدراسة ومفتاحها، فكان من اللازم تكثيفها؛ لأنّ الشاهد البلاغي كالشاهد النحوي منطلق الدراسة، وكم حاول السابقون الاكتفاء بالشواهد التقليدية المستهلكة المبثوثة، والمكرورة في معظم كتب البلاغة، إذا لم تكن فيها كلّها، حتى باتت كمّا تراكميا يشبه أيّ منها الآخر، إن لم يكن نسخة طبق الأصل عنه، هذه الشواهد فيها من القديم المتداول والجديد المتفرّد في بابه، وكانت النصوص في التمرينات آيات قرآنية أوّلا، وأبياتا شعرية ثانيا، وكان تكثيفها هادفا إلى التطبيق المتكامل الذي يتناول الكلّي، كما الجزئي من القاعدة، وهنا امتزج التّليد بالطارف قدر المستطاع، وأن تكون نصوصا متماسكة ما وسع الحاجة إلى ذلك.

هـ. تنمية الحسّ البلاغي والنّقدي من طريق وضع علوم البلاغة في خدمة النّص وكشف جمالية الصورة، لننسخ من أذهان الناس آليّة التمرينات البلاغية التي تكتفي بالتطبيق الجافّ، وتهمل تأثير التركيب في جمالية الصورة، لهذا تم التحليل بعناية فائقة وتم الكشف عن نقاب المعاني، وتدريب القارئ على ولوج الصورة من باب الجمالية لا من باب القاعدة الجوفاء والتطبيق المتسرّع.

****

الفصل الأول
مقدمة في علم البلاغة

المبحث الأول

علـــم البلاغـــة

البلاغة لغةً:

جاء في اللسان (بلغ): «بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، ...وبلغت المكان بلوغا: وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه، ومنه قوله تعالى (فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ) البقرة: ٢٣٤ أي: قاربنه، وبلغ النّبت: انتهى.» وهكذا نرى أن الدلالة اللغوية تتمحور حول الوصول، أو مقاربة الوصول، والانتهاء إلى الشيء والإفضاء إليه.

وإذا عدنا إلى اللسان (بلغ)، وجدناه يقارب المعنى الاصطلاحي عند ما يقول: «والبلاغة: الفصاحة...ورجل بليغ وبلغ وبلغ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، والجمع بلغاء، وقد بلغ بلاغة أي: صار بليغا» وهكذا نرى أن المعنى الإضافي (حسن الكلام) مرتبط بالمعنى الحقيقي (الوصول والانتهاء) لأنّ الكلام الحسن يوصّل ما في قلب المتكلم إلى المتلقّي بعبارة لسانه المشرقة الواضحة الجميلة.

البلاغة اصطلاحاً:

جاء في معجم المصطلحات العربية «هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فلا بدّ فيها من التفكير في المعاني الصادقة القيّمة القوية المبتكرة منسّقة حسنة الترتيب، مع توخّي الدقّة في انتقاء الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال من يكتب لهم أو يلقى إليهم»، لم يكتف المعجم بتعريف البلاغة، بل تعدّاه إلى شروط تحققها في الشكل والمضمون لتكون آسرة لعقل المخاطبين، فاعلة في قلوبهم، شاملة للمواقف الكلامية التي يقفها المتكلّمون، وأضاف معجم المصطلحات العربية إلى الشروط المتقدم ذكرها شرطا أهم بقوله: «والذّوق وحده هو العمدة في

الحكم على بلاغة الكلام» وهذا يعني أن تباين الأذواق يجعل الحكم على بلاغة الكلام أمرا نسبيا ، وتصبح البلاغة بلاغات.

حدّ البلاغة في كتب التراث:

روى الجاحظ تعريفات القدامى من شعراء وكتّاب عندما سئلوا عن مفهوم البلاغة، ومن هذه التعريفات نذكر ما يأتي:

١ . تفسير ابن المقفّع (ت ١٤٣ هـ):

وجاء فيه «البلاغة: اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها ، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة».

لقد أحسن الجاحظ عند ما ذكر تفسير ابن المقفّع مستبعدا مصطلحي: الحدّ والتعريف؛ لأن ابن المقفع اكتفى بتقديم صفات البلاغة المتمثّلة في الإيجاز ومراعاة المقام، ولكن من حقّنا أن نتساءل عن علاقة السكوت والاستماع بالبلاغة، فبأي معيار نقيس بلاغة الصّمت؟ وإذا كان الصمت أبلغ من الكلام في بعض المواقف المؤثرة حزنا أو فرحا، فهل يصحّ أن يسمّى العجز عن الإبلاغ عمّا يعتمل في النفس بلاغة؟ ألا يحقّ لنا أن نسمّي الصمت آنئذ حسن تخلص ارتباطه بالبلاغة واه لأن في الصمت مساواة بين البليغ وغيره. فهل يجوز أن يستوي في عين البلاغة الأبكم والفصيح؟

٢ . مفهوم (العتّابي ت ٢٢٠ هـ) للبلاغة:

روى الجاحظ عن صديق له سأل العتّابي قائلا: «ما البلاغة؟ قال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حبسة، ولا استعانة فهو بليغ»، لقد

اخترنا عمدا لفظ (مفهوم) لأننا رأينا أن العتّابي لم يعرّف البلاغة بقدر ما أعطى صفات البليغ، ألا يرى القارئ أن العتّابي سئل عن البلاغة فأجاب معرفا البليغ من المتكلّمين المبرّأ من العيّ والحبسة وفساد القول؟، ونترك للجاحظ نفسه شرح كلام العتّابي الذي جاء فيه: «والعتّابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه» وكأن الجاحظ يقيّد الإفهام بالكلام الجاري على أنماط كلام الفصحاء من العرب، ومن الدراسات القرآنية التي خاضت في قضايا البلاغة:

٣ . كتاب معاني القرآن للفرّاء (ت ٢٠٧ ه):

هو كتاب في تفسير القرآن وإعراب ما أشكل إعرابه، وتوجيه الإعراب في خدمة المعاني، ومن أجل ذلك أشرب تفسيره بكثير من البحوث البلاغية، يمثل الكتاب ذروة النضج عند الفرّاء لأنه أملاه سنة ٢٠٤ ه أي قبل وفاته بأعوام، فلقد تحدّث فيه بشكل خاص عن الحذف الذي قاده إلى الكلام على الإيجاز، وكما قبل الحذف والإيجاز قبل كذلك الزيادة ولو عارض في ذلك موقف المتزمتين الذين ينكرون أيّ زيادة في النص القرآني، وتوقّف عند ضروب التكرار والفائدة الدلالية والبلاغية منه، كما تناول فنّ التعريض في مواضع متفرقة وقد وجد فيه بعدا عن المباشرة ومخاطبة لذكاء المتلقي وفطنته، واستوقفه ما يسمى بالفواصل القرآنية فدرس موسيقاها ونغميّة الإيقاع فيها، ونكتفي بذكر هذه القضايا البلاغية التي عرضها الفرّاء في كتابه لأنها كافية للتدليل على علاقة البلاغة بالدراسات القرآنية.

٤. كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦ ه):

تحدّث ابن قتيبة في كتابه هذا عن المجاز ذاهبا إلى أن «للعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه» وذكر من هذه المجازات

كلا من: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، وغيرها من أبواب البلاغة، لكن الموضوع البلاغي الذي شغله كثيرا هو موضوع المجاز الذي أفرد له بابا مستقلّا أكد فيه إيمانه بوجود المجاز في اللغة أولا وفي القرآن ثانيا، وعدّد الأمثلة التي تثبت شيوعه في اللغة، وكان بحثه في المجاز توطئة للكلام على الاستعارة جاعلا المجاز المرسل منضويا تحتها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكناية، ورأى أن الالتفات من أساليب البلاغة العربية، وهو في المجمل كتاب قيم ورائع، ولا يجب الاستغناء عنه.

٥ ـ كتاب النكت في إعجاز القرآن للرّماني (ت ٣٨٤ هـ):

من أهم موضوعات البلاغة في هذا الكتاب قول المؤلف «والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان»، وقد جاء كلامه على هذه الأقسام متفاوتا إذ شغلت الأمثلة والشواهد حيّزا كبيرا من الكلام، أما التعريفات البلاغية فكانت غاية في الإيجاز، وفي سياق الحديث عن الإيجاز تطرّق إلى الإطناب والتطويل، مثنيا على الإطناب لأنه يفصّل المعنى وفقا للمقام. أما التطويل فليس من البلاغة في شيء لأنه تكلف الكثير من الكلام للقليل من المعاني، وقد ذهب الرماني إلى أن الشعراء يتفاضلون في باب التشبيه، وهو على كل حال على طبقات من الحسن، كما رأى أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة نظرا لأثرها النفسي في المتلقّين. وقد فاضل بين الفواصل والسجع مشيدا بالفواصل لأنّها تابعة للمعاني في حين كانت المعاني تابعة للأسجاع.

٥ ـ كتاب بيان إعجاز القرآن للخطّابي (ت ٣٨٨ هـ):

بنى كتابه على طريقة النظم حين ذهب فيه إلى أن الكلام «إنّما يقوم بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا

تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا، وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه»، وتحدّث بإسهاب عن فصاحة الكلمة لأنها في نظره جزء من فصاحة الكلام وبلاغته وحسن النظم، ووصف الكلمة بالفصاحة والجزالة البعيدة عن الغرابة ولأنّ البلاغة في نظره لا تعبأ بالغرابة.

علاقة البلاغة بالشعر:

عرف الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة صراعا بين تيارين شعريين هما: تيار المحافظين، وتيار المجددين، وتكلم النقاد على موجة الصراع بين أنصار المحافظة والتقليد من جهة، وأنصار التجديد من جهة ثانية، هذه الحقبة عرفت على صعيد الشعر مصطلحا جديدا هو: الخصومة بين القدامى والمحدثين، وهذه الخصومة وجهت الدارسين شطر دواوين الشعراء لدراسة ما فيها من بيان ساطع وقدرة على التخييل تسعف على ابتكار تشابيه جديدة وتفنّن في ضروب الاستعارة والمجاز، وراحوا يتقصون ما في دواوين هؤلاء من طباق وجناس وترصيع باحثين عن عناصر الصورة الشعرية واللغة الشعرية المميزة، وما دمنا بصدد الخصومة بين القدامى والمحدثين، فإننا نجد أنفسنا مجبرين على الإشارة –ولو بسرعة– إلى عدد من المصنفات التي أفرزتها تلك الخصومة، فمن أبرز هذه المصنفات:

١. **الوساطة** بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ).

٢. **الموازنة** بين أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧١ هـ).

هذان المصنفان وازنا بين الشعراء، وذكر صاحباهما بحوثا في البلاغة اقتضاها حسن الشرح والتعليل لبيان ما في وجوه المفاضلة من تميّز هذا الشاعر على ذاك في التخييل ، وعناصر الصورة الشعرية.

ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى كتاب سبق عصر الخصومة هذه، هو كتاب البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٩ هـ)، لقد تعقّب ابن المعتز ظاهرة البديع فوجده في شعر السابقين لموجة الحداثة، غير أن المحدثين عرفوا به لأنهم أفرطوا في استخدامه وأسرفوا في تكلّفه، قال ابن المعتز: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا...الذي سمّاه المحدثون البديع، ليعلم أن بشّارا، ومسلما، وأبا نواس، ومن تقيّلهم (حذا حذوهم)، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شعف به حتى غلب عليه وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف»، وهذا رأى حسن.

علاقة البلاغة بالخطابة:

كتب د.طه حسين بحثا بالفرنسية ترجمه إلى العربية عبد الحميد العبادي، وتصدّر كتاب نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي(ت ٣٣٧ هـ)، وهو بعنوان: (تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر)، ذهب فيه إلى أن الجاحظ وضع في كتابه البيان والتبيين أسس الخطابة البليغة قبل أن يطلع العرب على كتاب الخطابة لأرسطو، ولما ترجم كتاب الخطابة لأرسطو صار للعرب بيانان، أحدهما عربي والآخر يوناني، والخطبة على علاقة وطيدة بالقصيدة لأن القصيدة كانت تلقى في حفل، ولأنها تهدف مثلها في كثير من الأحيان إلى الإقناع والتأثير، ألم تكن معلقة الحرث بن حلزة خطبة عصماء أقنعت الملك عمرو بن هند وأبعدت منافسه التغلبي عمرو بن كلثوم؟ والخطبة فيها كالقصيدة عناية بفنون التعبير، لهذا بسط النقاد كلامهم على ما فيها من سجع، وطباق، وجناس، ومقابلة، وتشبيه ومجاز...إلخ.

ومن يراجع كتاب البيان والتبيين يجد الجاحظ غير مفرق بين البلاغة والخطابة فلقد ذهب إلى أن«أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش...» وقد جمع شروط الخطابة الناجحة والخطيب المفوّه متطرقا إلى مقولة: لكل مقام مقال، والبعد عن التكلف والغرابة، والإيجاز في نظره من مقومات الخطبة البليغة، وتحدث الجاحظ عن عيوب الخطيب الخلقية، كما تحدث عن عيوب النطق وعدّها آفة في الخطيب تبعده عن بلاغة القول وحسن التأثير في المخاطبين، ثم عقد بابا ذكر فيه أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء وذكر قبائلهم وأنسابهم.

وفي الخطابة كلام على أنواع التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية والإيجاز والإطناب والمساواة وغيرها من ضروب البلاغة التي تحدث عنها النقاد والبلاغيون في نقد الشعر وبيان فضائله التعبيرية وصوره التخييلية.

****

المبحث الثانى
بين الفصاحة والبلاغة والأسلوب

-الفصاحة قاموسياً:

جاء في اللسان (فصح)، «الفصاحة: البيان؛ فصح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح وفصح...تقول: رجل فصيح أي بليغ، ولسان فصيح أي طلق...وأفصح عن الشيء إفصاحا إذا بيّنه وكشفه، وفصح الرجل وتفصّح إذا كان عربي اللسان فازداد فصاحة...وكل ما وضح فقد أفصح».

نستدل من هذا الكلام على أن المعنى القاموسي متمحور حول معنيين: الوضوح والظهور، وهذا هو المعنى الوارد في القرآن الكريم **(وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً)** القصص: ٣٤، كما ورد بهذا المعنى نفسه في الحديث الشريف الذي جاء فيه: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»، كما نستدل على أن الفصاحة والبلاغة شيء واحد إذ اللسان شرح (رجل فصيح) فقال: أي بليغ فكأن الفصاحة والبلاغة عنده سيّان.

-الفصاحة اصطلاحاً:

جاء في معجم المصطلحات العربية «الفصاحة: أن تكون كل لفظة في الكلام بيّنة المعنى، مفهومة، عذبة، سلسة، متمشّية مع القواعد الصرفية» وجعل الفصاحة في ثلاثة أمور: فصاحة التركيب، فصاحة الكلمة، فصاحة المتكلّم، فالفصاحة باختصار، هي: الكلام الواضح المعنى، البيّن الغرض الذي تجري ألفاظه على قواعد اللغة، وقد قسمها البلاغيون القدامى في مصنفاتهم البلاغية إلى قسمين، أحدهما يتعلق باللفظ المفرد، والآخر يتعلق باللفظ المركب، كما سنرى بوضوح فيما سيأتى:

أولا ـ فصاحة المفرد:

ويعني «المفرد» اللفظ الواحد مجردا من سياقه الذي انتظم فيه، فهو إذا الكلمة، ولا تكون الكلمة فصيحة في نظرهم إلا إذا خلت من عيوب ثلاثة هي:

أ ـ تنافر الحروف:

ويعني البلاغيون بهذا المصطلح ما تكون الكلمة بسببه ثقيلة على اللسان ، بحيث يصعب النطق بها، وثقيلة على السمع أيضا، وقد رأى البلاغيون ثقلا خفيفا في قول امرئ القيس (الطويل):

غدائره مستشزرات إلى العلا تضلّ المدارى في مثنّى ومرسل

فكلمة مستشزرات غير فصيحة عندهم لصعوبة النطق بها دفعة واحدة، فيضطر القارئ إلى تجزئتها وقراءتها مقطعيا، ولكن هذه الكلمة تبقى أخف من كلمة (الهعخع) التي عدّها البلاغيون ثقيلة أو هي غاية في الثقل، وقد سمّى الجاحظ هذه الظاهرة ب (الاقتران) عند ما قال: «... فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء، ولا الغين، بتقديم ولا تأخير، والزّاي لا تقارن الظّاء، ولا السيّن، ولا الضاد، ولا الذّال، بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدلّ به على الغاية التي إليها يجرى».

ب ـ الغرابة:

اللفظ الغريب: هو الذي مات استعماله، وغدا من الحوشي الذي يحتاج في التعرف إلى دلالته إلى المعجمات، والحكم في قضية الغرابة الأدباء والشعراء لا العامة، وإلا صار مجمل اللغة غريبا غير فصيح. قال أبو الطيب (الكامل):

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغرّ دلائل

فالفعل جفخ يعني قاموسيا: تكبّر وفخر وقد لجأ إليه المتنبي ليتحدّى أعداءه في البلاط، وإذا كان النقاد قد ذهبوا إلى أن اللجوء إلى الغريب عجز في صاحبه فمن السهل على المتنبي إحلال (فخرت) مكان (جفخت) و (يفخرون) محل (يجفخون) ليبتعد عن الغريب، ولهذا فإن الضرورة أو العجز لم يلجئاه إلى الغريب، ولكن الرغبة في التمايز والانفراد هي التي دفعته إلى اختيار اللفظ الغريب، ولعل البيت مصاب بعيب آخر غير الغرابة، ألا يصح اتهام اللفظ نفسه (جفخت) بتنافر الحروف؟ ألا يتهم البيت أيضا بالتعقيد اللفظي المتمثل في تكرار الضمائر الموقع في صعوبة ردها إلى أصحابها (بها ، بهم)، هذا التعقيد اللفظي أوقع في تعقيد معنوي حتى صار البيت بحاجة إلى شحذ الحس اللغوي، وإعادة صياغته لنظم البيت وصولا إلى المعنى، والنظم المعنوي للبيت هو: جفخت بهم شيم على الحسب الأغرّ دلائل، وهم لا يجفخون بها.

إن الكلام على غرابة اللفظ حمل النقاد على الحديث عن التفاضل بين لفظ وآخر، ورأى الجرجاني أن الكلمتين المفردتين لا تتفاضلان «من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه، من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشيّة، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن»، وإذا كان الجرجاني قد فضل الكلمة المألوفة على الغريبة الوحشية، والخفيفة على اللسان على الثقيلة عليه، فإنه في الواقع قد أهمل الدوافع النفسية التي تحمل الشاعر على تفضيل الغريب مع قدرته على استخدام المألوف كتلك التي حملت المتنبي على تفضيل (جفخت) على (فخرت)، ولعل الجرجاني قد أدرك الخلل في نظرته هذه إلى التفاضل فقال: «فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها

الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ».

وهكذا يرى الجرجاني أن الفصاحة والبلاغة ليستا في اللفظ المفرد إلا إذا انتظم في سياق، وهو محقّ في ذلك لأن الكلمة بمفردها مشروع معنى يحدّده ويقيّده السياق، وإذا كان الجرجاني قد ذهب إلى أن «الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر» فإنني أذهب إلى أن (جفخت) فصيحة في سياقها على الرغم من تنافر حروفها وحوشيتها؛ لأنها رصفت في سياق لا يليق به غيرها.

ج ـ مخالفة القياس اللغوي:

قال أبو النّجم العجليّ: (الرّجز)

الحمد لله العليّ الأجلل الواهب الفضل الكريم المجزل

وقال المتنبي: (الطويل)

ولا يبرم الأمر الذي هو حالل ولا يحلل الأمر الذي هو مبرم

توافرت لأبي النجم والمتنبي شروط الإدغام ولكن الضرورة ألجأتهما إلى فكّه في كلّ من (الأجلل . الأجلّ) و (حالل . حالّ) و (يحلل . يحلّ) وفي هذه الضرورة مخالفة للقياس الصرّفي، ومن مخالفة القياس الصرفي ما نجده من أخطاء شائعة على ألسنة الناس وفي كتابات بعض المحدثين كأن يقولوا: السيارة المباعة، ونضوج الفاكهة يزيدها حلاوة، وهذه عصاتي وغير ذلك، والقياس الصرفي يقضي يقول: السيارة المبيعة، ونضج الفاكهة ونضجها، وهذه عصاي، فالكاتب المبدع، والشاعر المفلق، يتحرى صحة الألفاظ وجريانها على قواعد الصرف والنحو، ويبتعد عن الألفاظ العامية المبتذلة، ولقد خالف بعض النقاد القدامى هذا المبدأ، فابن الأثير ينبّه إلى أنه «ينبغي لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة» وفي هذا الحكم ضرب من المغالاة، في رأينا، لأن الفصاحة وضوح وتبيين ورفع المفعول

ونصب الفاعل لا يوضحان المعنى، علاوة على أن الأدب آلته اللغة فإذا كانت اللغة ركيكة ذهب رونق الأدب، وذهب ابن خلدون إلى موقف شبيه بموقف ابن الأثير عندما رأى: «أن الإعراب لا دخل له في البلاغة، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة، واشتهر، صحّت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة».

إن الاستخفاف بقوانين النحاة، لا يخدم الإبداع بل يعارضه. والقدامى اشترطوا صحّة القياس ليبقى التواصل ولتتأصل الملكة ولأنهم أدركوا أن فشوّ اللحن قد عطّل آلة البلاغة كما عطّل حسن السليقة وتمكّن الملكة، ونهض من بين المحدثين من يؤكد «أهمية اتباع نظام موحد في التعامل مع اللغة حفاظا على سلامة النظام اللغوي في أبنيته ومفرداته، لكن لا ينبغي، في الوقت نفسه، التعويل دائما على القياس والخضوع المطلق لكل ما يفرضه» وردّنا على هذا لا يختلف كثيرا عن رأينا في ما تقدم من كلام على رأيي ابن الأثير وابن خلدون.

ثانيا ـ فصاحة المركب (فصاحة الكلام):

وضع البلاغيون أربعة شروط لفصاحة الكلام، هي:

١ ـ سلامته من ضعف التأليف:

وتعني السلامة هذه خلو الكلام من الخطأ النحوي والصرفي، وجريانه على قواعد النحو المطردة، كقول حسان (الطويل):

ولو أن مجدا أخلد الدّهر واحدا من الناس أبقى مجده الدّهر مطعما

أعاد الشاعر الضمير المتصل بالفاعل على متأخر لفظا ورتبة، الهاء في مجده عائدة على (مطعما) وهو متأخر في اللفظ والرتبة لأنه مفعول به، وهذا ممنوع عند جمهور البصريين، ولكن بعض الكوفيين، وابن جنّي أجازوا ذلك،

والمتتبّع لدواوين الشعراء القدامى، وكتابات المحدثين يرى أن هذه الظاهرة شاعت وليست من جنايات الترجمة كما ذهب إلى ذلك المخطّئون، ويبدو أن شيوعها قد سبق لغة الصحافة لأن الشعراء الذين يحتج بشعرهم قد فعلوا ذلك، والأغرب أن واضع علم النحو قد فعل ذلك في شعره عند ما قال (الطويل):

جزى ربّه عنّي عدّي بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

فكيف تكون هذه الظاهرة ممنوعة عند النحويين وأبو النحو يستخدمها في شعره؟ وأين مصداقيّة المنظّر إذا خالفت الممارسة التنظير؟

٢ ـ سلامته من تنافر الحروف في الكلمات المتتابعة:

وهذا يعني ألا يكون بين الكلمات المتتابعة مجتمعة في تركيب انسجام وتآلف بحيث تتقل على اللسان، ويصعب التلفظ بها وإن كانت كلّ كلمة بمفردها خفيفة لا تقل فيها، وذكر الجاحظ قولا للأصمعي جاء فيه «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر (السريع):

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم: إن ذلك إنما اعتراه، إذ كان من أشعار الجن، صدّقوا ذلك»، وإذا عدنا إلى كل لفظة بمفردها من ألفاظ البيت وجدناها خالية من تنافر الحروف، لا ثقل فيها على اللسان، ولكن عند اجتماعها في تعبير بدت متنافرة، لا تآلف بينها ولا تجانس، حتى ليتعثّر اللسان بنطقها مجتمعة، ورأى الجاحظ أنه إذا «كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيّا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة»، ولهذا خلص إلى القول: «وأجود الشعر ما

رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدّهان».

٣ ـ سلامته من التعقيد اللفظي:

رأى البلاغيون أن التعقيد اللفظي يعني أن يأتي الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع في نظمه وتركيبه، بحيث لا يأتي رصف الألفاظ وفق ترتيب المعاني، وسبب ذلك اعتماد الفصل بين كلمات توجب اللغة عدم الفصل بينها، وتأخير الألفاظ عن مواطنها الأصلية لغرض غير بلاغي، ونقدم مثالا على التعقيد اللفظي قول الفرزدق(الطويل):

وما مثله في الناس إلا مملّكا أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه

فضرورة الوزن حملته على التعقيد، ففصل بين البدل (حيّ) والمبدل منه (مثله)، وقدّم المستثنى (مملّكا) على المستثنى منه (حيّ)، وفصل بين المبتدأ والخبر (أبو أمه أبوه) بأجنبيّ وهو (حي)، وبين الصفة والموصوف (حي يقاربه) بأجنبي هو (أبوه)، ورصف البيت ونظمه بحسب المعاني هو: ليس كالممدوح في الناس حيّ يقاربه في الفضائل إلا ملكا، أبو أم ذلك الملك أبو الممدوح. لذلك كان على القارئ أو السامع أن يطلب المعنى بالحيلة، وأن يسعى إليه من غير الطريق.

٤ ـ سلامته من التعقيد المعنوي:

ويقصد بالتعقيد المعنوي الكلام الذي خفيت دلالته على المعنى لخلل واقع في معناه، بسبب انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم لغة من اللفظ إلى المعنى الثاني المقصود بحيث يحتاج المعنى البعيد إلى تكلّف وتعسّف في التفسير، ومن التعقيد المعنوي ما جاء في قول العبّاس بن الأحنف(الطويل):

سأطلب بعد الدّار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

طلب الشاعر البعد عن أحبّته غير عابئ بآلام البعد لتعليله نفسه بوصال دائم ، وفرح لا يزول بعد أن عاد من سفره غنيّا ليطول اجتماعه بأحبته، فقد عبر الشاعر عما يوجبه فراق الأحبة من لوعة وحزن ب (تسكب عيناي الدموع) فكان مجيدا في تعبيره لأنّ البكاء أمارة على الحزن، وكنى ب (جمود العين) عن السرور والبهجة اللذين أصاباه بعد اجتماعه بأحبته، لكنه أخطأ الهدف لأن جمود العين يعني جفاف الدمع وعدم جريانه عند الدافع إليه (الحزن على فراق الأحبة) لا عمّا أراده من السرور، إذ متى كان البكاء أمارة على السرور؟، وقد أضاف المحدثون عيبا خامسا هو:

٥ ـ كثرة التكرار وتتابع الإضافات:

مثال ذلك قول المتنبي في فرسه (الطويل):

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

تتابعت في البيت حروف الجر ومجروراتها، وكذلك الضمائر مما أفضى إلى ثقل الكلام على اللسان، وتكرار غمرة أسقط عنها طاقة الإيحاء، قال الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد في قصيدة بعنوان(براءة ١٩٥٤):

من طيبتي
من كبريائي
من أصدقائي
من كل ما قدّست
ما آمنت أنّ به بقائي
من ذكرياتي
من حاضري
من كل آت
من والدي وسحابة الستّين في عينيه تهمي
من إخوتي حتى الصغير

ومن أخيّاتي وأمّي
من كل إنسانيّتي
من كل إيثاري لغيري
من كل شعري...

ففي الأسطر الأربعة عشر تكرّر حرف الجر (من) ثلاث عشرة مرة، بحيث تصدّر ثلاثة عشر سطرا، وتكرّرت (كلّ) خمس مرات حتى كان تكرارهما مدروسا، فاشتد من خلال التكرار عمق شعورنا بالمأساة، وكانت الكلمة منطلقا ولم تكن مجرد متكأ يتوكأ عليه الشاعر منطلقا إلى موضوعات جديدة، لهذا كان هذا التكرار مدروسا ساعد الشاعر على إفراغ عواطفه وإبراز انفعالاته المتفجرة وكانت المرة الأولى تدفع إلى شيء لاحق وهكذا على التوالي حتى بقيت طاقة الإيحاء فيها مهيمنة، ولم يكن التكرار سبيلا إلى السأم وتهرؤ الصيغ ومعانيها، ليحافظ الشاعر على ألق العبارة يجب أن يكون التكرار في قصيدته مدروسا يبعد شبح الموت عن المعاني المكررة، ويبعث ألقا في الألفاظ بحيث تحتفظ بقدرتها الإيحائية العاملة على إثارة جديد لاحق لا إماتة معنى يشيع على مساحة القصيدة.

ثالثاً: الأسلوب

جاء في اللسان (سلب) «يقال للسّطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتدّ فهو أسلوب: قال: والأسلوب الطريق والوجه والمذهب...والأسلوب: الطريق تأخذ فيه،...والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي: أفانين منه».

يكتشف المتأمل في هذا الكلام المعنى القديم للأسلوب والأصل الذي بقي محافظا على كيانه يوم توسّعت الدلالة وانزاحت من سطر النخيل إلى سطر الكلام، حتى استقرّت دلالته بوشاحها الفني فالأسلوب هو الفن، وأساليب القول: أفانينه، ولعلّه من الضروري الكلام على الأساليب لأن

أساليب القول هي التي أنشأت مذاهب أدبية وتيارات ومدارس شعرية، وقد جمح بعض الكتاب والشعراء في العناية بنتاجهم حتى قدّموا الأسلوب على الأفكار، وذهب بعضهم إلى القول: ليس المهم ما تقول، بل المهم كيف تقول، وشعراء الحداثة لم يثوروا على مضمون القصيدة بقدر ما ثاروا على مبناها وأسلوبها، وهذا أدونيس يقول: «يمكن اختصار معنى الحداثة بأنه التوكيد المطلق على أوّلية التعبير، أعني أن طريقة القول أو كيفية القول أكثر أهمية من الشيء المقول، وأن شعرية القصيدة أو فنيتها في بنيتها لا في وظيفتها»، وإذا كان «لسان العرب» قد أعطى المعنى القاموسي للفظ فإن معجمات المصطلحات توكأت على هذا المعنى وطوّرته، لا بل حدّثته.

وجاء في معجم المصطلحات العربية: «الأسلوب بوجه عام هو: طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابة» وهذه الطريقة تتناول الألفاظ التي يختارها الإنسان والتراكيب والجمل التي ترصف فيها هذه الألفاظ، فمن هذه التراكيب ما يكون معقّدا، ومنها ما يكون سهلا واضحا، ومنها المتأنق الموشّح بضروب البديع والبيان، ومنها البسيط المباشر الذي لا يعتني بالمحسنات على ضروبها المتعددة، من هنا علاقة الأسلوب بصاحبه وبمقدرته على استغلال خزائن اللغة واكتناه جواهرها، فمن الناس من يغرم بجمع العاديات، ومنهم من يبحث عن الجديد، ومنهم من يتوخى البساطة في التعبير، ومنهم من يتكلف القول ويتمحّل طرقا جديدة في الصياغة والعلاقات بين الألفاظ حتى لتبدو العبارة لعبة جديدة لا يتقن غيره استخدامها، ولهذا كان المحدثون ينشدون البحث عن أساليب جديدة في البحث البلاغي لأنهم جددوا الأساليب وتخطوا قواعد البلاغيين القديمة المتخلّفة عن مواكبتهم ولأن القواعد سلطة يجب تدميرها، وقد حاول المحدثون تعريف الأسلوب تعريفا جامعا، فقال أحمد الشايب: «الأسلوب هو طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير،

أو الضرب من النظم فيه...إنه باختصار طريقة التفكير والتصوير والتعبير»، وبما أنه طريقة التفكير والتصوير والتعبير فقد قسمه البلاغيون ثلاثة أقسام هي:

١ ـ الأسلوب العلمي:

عرّفه معجم المصطلحات بقوله: «هو الأسلوب الواضح المنطقي البعيد عن الخيال الشعري، وذلك كالأساليب التي تكتب بها الكتب العلمية»، وليكون الأسلوب واضحا فإنه محتاج إلى المنطق السليم، والفكر المستنير البعيد عن التهويم والتخفي وراء الغموض الفكري أو الفني، فلا يخوض في الصور الشعرية المعقدة لأنه يخاطب العقل، ولا ينشد خلق حالة شعرية عند المتلقّي، فهو يتوجّه إلى العقل ليقنعه لا إلى القلب ليثيره، لهذا كان الوضوح من أبرز مقوماته.

هذا الوضوح يقضي باختيار ألفاظ تقنية لا تقصّر عن أداء المعنى، ولا هي تعطيه أكثر من دلالتها القاموسية أو الاصطلاحية. لهذا وجب تجنب ألفاظ التضادّ والمشترك اللفظي، لأنها تعطّل عملية التواصل الصحيح، ولتوضيح الفكرة يستعين العلماء بلغة فيها بعض العناصر الشارحة كالنعت، والمضاف إليه، والحال، والتمييز، لكنّهم يبتعدون حتما عن الغريب والحوشي من الألفاظ، ويتحاشون الوقوع في التعقيد اللفظي والمعنوي اللذين تحدثنا عنهما سابقا، كما أنهم يبتعدون عن بعض أساليب البلاغة من كنايات، وتوريات وأساليب المجاز والمحسّنات التي تقود المعتني بها إلى مسالك تبعده عن غايته الأساسية، وربّما سمح العلماء لأنفسهم باعتماد التشبيه الواضح الذي يستوفي أركانه لأنّه يساعدهم في التقريب بين الشائع المتداول من الأشياء والجديد الذي لم تألفه العيون والأفكار.

٢ ـ الأسلوب الأدبي:

عرفه معجم المصطلحات بقوله: «هو الأسلوب الجميل ذو الخيال الرائع والتصوير الدقيق الذي يظهر المعنويّ في صورة المحسوس والمحسوس في صورة المعنوي» يشيع هذا الأسلوب في الشعر والنثر الفني، ويوظّف فيه الشاعر أو الكاتب طاقاته الإبداعية كلها لأن الهدف الرئيسي الذي يسعى إلى تحقيقه يبقى إثارة الانفعال في نفوس الآخرين وتحقيق نقلة بين مشاعره ومشاعرهم، فالأسلوب الأدبي عاطفي بالدرجة الأولى، ولا يكتب صاحبه إلا في درجة الغليان العاطفي لهذا كان الانفعال أبرز مقوّماته، وهو قائم على التخييل ومطالب بالتشكيل فلا يقبل فيه الكلام كيفما اتفق، فالعبارة يجب أن تكون فخمة محلّاة بالصور، مكسوّة بضروب البديع والبيان، مشعّة بألفاظ موحية تتشظّى معانيها وتقبل قراءات شتى، ويكثر فيها التأويل لأنها تتوسع في احتواء المجاز، والاستعارة، والكناية، والتورية، وما إلى ذلك من ضروب البديع والبيان.

ولهذا فإن الأسلوب الأدبي مطالب بتوظيف الصور البلاغية على اختلاف درجاتها وأنواعها، ولكنّ صاحبه مطالب دائما بالبعد عن التكلف والتعسف والاقتراب من العفوية والطبعية مع مراعاة لأصول الفنّية الراقية البعيدة عن المباشرة والابتذال.

٣ ـ الأسلوب الخطابي:

عرّفه معجم المصطلحات بقوله: «هو الذي يمتاز بقوة المعاني والألفاظ ورصانة الحجج، كما يمتاز بالجمال والوضوح وكثرة المترادفات والتكرار»، والخطابة كما قال القدامى، فنّ يهدف إلى الإقناع والتأثير، وللوصول إلى الإقناع كان على الخطيب أن يتحلى بقوة المعاني وجزالة الألفاظ، وبالحجة والبرهان الساطع الذي يسقط دليل المخاطبين ويفضح زيف ادعاءاتهم، فالعقل الخصيب يستنبط الحجج والأدلة والبراهين التي ترسّخ مقولة الخطيب وتقنع المخاطبين بوجهة نظره، ولأن الخطبة تلقى في حفل

فإن أمورا شكلية تتدخل لإنجاحها، فنبرات صوت الخطيب وحسن إلقائه، ومحكم إشاراته، عناصر مساعدة على أداء خطابي ناجح، كما يعمد الخطيب إلى التكرار الذي يقتضيه المقام، فالمخاطبون قد يتخلفون عن تتبّع أفكار الخطيب فيلجأ إلى التكرار اللفظي أو المعنوي ليثبت الفكرة في عقولهم، هذا التكرار مستحبّ في الخطبة شريطة أن يراعى مستوى المخاطبين الفكري والثقافي، ولهذا نرى الخطيب الناجح لا يميت الطاقة الإيحائية الكامنة في الألفاظ المكررة بل يلجأ إلى المرادفات ويتقرّب من مخاطبيه بضرب الأمثال والابتعاد عن الرّتابة المملة بتمويج العبارة بين الخبر والإنشاء والتنقل بين التقرير والاستفهام والتعجب والاستنكار، وكثيرا ما يلجأ الخطيب إلى الطباق الموظف توظيفا حسنا ليبين الفرق بين حال قائمة وحال زائلة، بين ما هو كائن ، وبين ما هو واجب أن يكون، وكذلك المقابلة التي تقوم على تعدد الطباقات التي تخاطب العقول والقلوب وتؤثر في الحواس وتأسر الأسماع، وفي الأسلوب الخطابي يزواج الخطيب بين المباشرة عندما يرى أن تسمية الأمور بأسمائها مفيدة ومساعدة على الإقناع، وبين الفنية العالية التي تخاطب ذكاء المخاطبين وقدرتهم على التحليل والفهم والاستنتاج.

****

المبحث الثالث
الأدباء وكيفية اكتساب فصاحة اللسان

ألفاظ الأديب التي يستخدمها في فنّه هي نفسها تلك الألفاظ التي يستخدمها جميع الناس في كلامهم، ويتحدثون بها ويكتبون، لكنه يستطيع بهذه الأداة المألوفة حين يحسن التوفيق بين حروفها، وتركيب ألفاظها، واختيار الأصلح منها أن ينطق بالسحر الحلال، الذي تقبله النفس، وينشرح له الصدر، ويمكنه بهذا أن يخرج فنا يفوق جميع الفنون، ويسمو عليها، وإذا صدر الكلام من المتحدث على تلك الصورة وصفه النقاد والبلاغيون بالفصاحة والبلاغة، وقد شاع استعمالهما في كتب النقد والبلاغة، وعرفهما العرب صنوين تستعملان معا، أو تستعمل الواحدة مكان الأخرى.

وكان النقاد والبلاغيون الأوائل لا يفرقون بينهما.، فالجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» يجعل الفصاحة والبلاغة والبيان مترادفات تدل على معنى واحد، أما أبو هلال العسكري فقد أورد فيهما رأيين:

الأول: «أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له».

والثاني: يقول فيه: إن الفصاحة مقصورة على اللفظ، والبلاغة مقصورة على المعنى: «ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتضمن المعنى، أن الببغاء يسمّى فصيحا ولا يسمى بليغا إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه، وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ ، جيد السبك، غير مستكره فجّ، ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف».

أما صاحب الصّحاح فقد قال: البلاغة هي الفصاحة، وابن سنان قال عنهما: «إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا»، وقال عنهما ابن الأثير: «وسمي الكلام بليغا لأنه بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية، والبلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخص من الفصاحة، كالإنسان والحيوان، فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسان وكذلك يقال: كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغا» .

أما الخطيب القزويني فهو آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين، فجمع بحوث العلماء الذين سبقوه، ورتب بحث الألفاظ ترتيبا علميا فجعل البحث عن معنى «الفصاحة» مقدمة لعلوم البلاغة، وأصبح للفصاحة مضمونها وجعلها صفة للكلمة المفردة، والكلام والمتكلم، فقال: «للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة، لم أجد فيما بلغني منها ما يصلح لتعريفها به، ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم؛ فالأولى أن نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين، فنقول: كل واحدة منهما تقع صفة لمعنيين:

أحدهما: الكلام، كما في قولك «قصيدة فصيحة، أو بليغة» و «رسالة فصيحة، أو بليغة».

والثاني: المتكلم، كما في قولك «شاعر فصيح، أو بليغ» «وكاتب فصيح أو بليغ».

والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد؛ فيقال: «كلمة فصيحة» ولا يقال: «كلمة بليغة»، وعلى هذا فالبلاغة كل والفصاحة جزؤه، وعليه أيضا: الفصاحة من صفات المفرد كما هي من صفات المركب، وهذا الرأي هو الذي استقرّت عليه بحوث البلاغة أخيرا.

أما كيفية اكتساب فصاحة اللسان فهذا يتطلّب الصّبر والإصرار على الاستمرار في التعلّم، والتدريب والمتابعة حتّى في حالة فشل الشخص في المراحل الأولى من تعلّمه، كما يتطلّب التحدث في مختلف المواقف والمواضيع بثقة وفصاحة دون تردّد أو خجل، وعدم نسيان الأفكار، وللتحدُّث بفصاحة وطلاقة فإنّ على الشخص أن يهتمّ ببعض الأمور، منها:

القراءة:

حتّى يتمكّن الشخص من التحدّث بفصاحة فعليه بقراءة القرآن؛ ففيه من الإيجاز والإعجاز والبيان ما عجِز بشر عن الإتيان بمثله، فكان بذلك أبلغ كتاب في اللغة العربية، بالإضافة إلى قراءة الحديث النبوي الشريف أيضًا؛ فقد اتّصفت أحاديث النبيّ محمّد –عليه الصّلاة والسّلام– بالألفاظ القليلة ذات المعاني الوجيزة، حيث قال: (فُضِّلتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ: –منها– أُعطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ)، ثمّ قراءة بعض الأشعار والخطب العربيّة وحفظها؛ إذ قال عليّ بن أبي طالب: "الشِّعر ميزان القول"، بالإضافة إلى الاطّلاع على الأدب الحديث؛ حيث إنّ القراءة تزيد من الحصيلة اللغوية؛ ومن ثَمَّ تساعد على تجنُّب التلعثم أو فقدان المعنى، فغاية الفصاحة لدى العرب هي إيصال المعنى الصحيح السليم.

ويروي الجاحظ أنّ أبا بكر مرّ برجل يبيع الثياب في السوق، فقال له: أتبيع الثوب؟ قال: لا، عافاك الله، فقال أبو بكر: لقد عُلِّمتم لو كنتم تعلمون، ألا قلت: لا، وعافاك الله؟ يُشير إلى موضع الوصل بين الجملتين.

اختيار نموذج أو قدوة للاقتداء بها:

يكون ذلك باختيار إحدى الشخصيّات المعروفة بفصاحتها وقدرتها على التعبير، وقد كانت بعض قبائل مكّة ترسل أبناءها إلى البادية؛ كي ينشأ أطفالهم فُصحاء اللسان.

التواصل الاجتماعيّ:

هو التواصل مع الناس في المناسبات والأفراح وغيرها؛ لتطوير مهارات التواصل والكلام، بالإضافة إلى محاولة التميّز في الدراسة أو في مجال العمل، وعدم تجنّب الناس؛ لأن ذلك يضعف المهارات الاجتماعيّة، ومن ثمّ يُضعف مهارات التواصل، وذلك يتطلّب التدريب والممارسة، فمواصلة التدريب تؤدّي إلى تحقيق الهدف؛ وهو النقاش والحوار بفصاحة، حتّى تصبح الفصاحة ملَكةً عند صاحبها؛ فمهارة التواصل من أهمّ المهارات التي يجب أن يكتسبها أيّ إنسان؛ فهي تساعد على إيصال وجهة النظر، وإقناع الطرف الآخر بها.

مخاطبة الناس بما يفهمون حسب لهجاتهم:

أي أن يُخاطبهم بما يفهمون، وإن تطلّب ذلك مخاطبتهم بلغتهم أو لهجتهم الخاصّة، ويُروى أنّ رجلاً دخل على أحد ملوك حمير وهو جالس في مكان مرتفع، فقال له الملك: ثَبْ؛ أي اجلس بلهجته، فقفز الرّجل من الجبل فمات، استغرب الملك تصرُّفه، فشرحوا له أن الوثب في لغة الرجل يعني القفز، في حين أنّ الملك كان يريده أن يجلس، وبهذا تكون كلّ لغة ولهجة هي الفصحى لدى من يتواصلون بها، في حدودهم.

تطوير المهارات:

هو الأمر الذي يتطلّب المثابرة على تطوير تلك المهارات وصقلها، فبمواصلة العمل يتمّ تحقيق الغاية المنشودة، وهي القدرة على النقاش والحوار بفصاحة، إلى أن تصير الفصاحة طبعاً وصفةً عند صاحبها، قال ابن خلدون: (والمَلَكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال)، وأسباب ضعف الفصاحة تتعرّض اللغات عبر الزمن إلى تغيّرات في ألفاظها، وبُناها، وحتّى قواعدها، من هذه التغييرات ما يكون حميداً، ومنها ما يصيب اللغة بضعف، وقد أصاب اللسانَ العربيَّ ضعفٌ واضحٌ، فضعفت فصاحته؛ ويعود ضعف

الفصاحة إلى أسباب عديدة، منها ما كان بسبب هذا الاختلاط، ومنها ما كان بسبب خلل لدى المتكلّم.

ومن هذه الأسباب:

التّرجمة:

ما من لُغة –منها اللغة العربيّة– إلا كانت عُرضةً للتبادل اللغويّ؛ بسبب اختلاط الشعوب، الأمر الذي أدّى إلى دخول مصطلحات جديدة أضعفت فصاحة العربيّ عند نقله للفكرة، من حيث استخدامه لألفاظ أعجميّة، أو دخيلة على العربية، أو مُترجَمة، بالإضافة إلى سطحيّة التعبير عن مضمون الفكرة، وضعف الأسلوب في نقلها إلى اللغة المترجم إليها.

الصعوبة:

هي صفة توجد في تأليف المتكلم لكلامه، وتكرار اللفظة، ويُروى أنّ أبا تمّام أنشد أحمد بن أبي داود قوله:

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمِّل منك إلا بالرِّضى

فقال له إسحاق بن أبي إبراهيم الموصلي: (لقد شققتَ على نفسك يا أبا تمام، والشِّعر أسهل من هذا).

اللثغة:

وللجاحظ كلام في هذا الشأن؛ إذ يقول: (الذي يعتري اللسان ممّا يمنع البيان أمور، منها: اللثغة التي تعتري الصبيان غالباً إلى أن ينشؤوا، كنطق الراء ياءً)، فلا شكّ أنّها تؤثّر على فصاحة الكلام؛ لأنها تجعل الكلام غير واضح وغير سليم.

وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعيّ:

فقد تسبّبت وسائل الإعلام المُتعدّدة بإهمال اللغة إهمالاً بالغاً، ممّا أضعف فصاحة اللسان العربيّ، كما أدّى انتشار مواقع التواصل الاجتماعي

إلى ضعف الألفاظ، ورداءة المعاني، وانتشار اللهجات المحليّة العاميّة بدلاً من اللفظ الفصيح.

تمرينات:

السؤال الأول:

قال صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ هـ) (الخفيف):

إنما الحيزبون والدّردبيس وال طّخا والنّقاخ والعلـــــطبيس
والغطاريس والعقنفس والــغر نق والخربصيص والعيطموس
لـــغة تنفر المسامع منــها حين تروى، وتشمئزّ النفوس

السؤال الثانى:

أين قولي: هذا كثيب قديم، ومقالي: عقنقل قدموس؟

السؤال الثالث:

خلّ للأصمعيّ جوب الفيافي في جفاف تخفّ فيه الرؤوس
إنما هذه القلوب حـــــديد ولذيذ الألفاظ مـــــغناطيس

المطلوب:

١ . ما الذي أخلّ بفصاحة المفرد في هذه الأبيات؟ أدرس ذلك بالتفصيل.

٣ . طرح الشاعر في أحد الأبيات رأيه في اللغة الواجب اعتمادها لتأسر المسامع والنفوس، دلّ عليه، واشرحه مبينا رأيك في موقفه هذا.

قاموس المفردات:

١ . الحيزبون: المرأة العجوز، الدّردبيس: الرجل الهرم، الطخا: السحاب الرقيق المرتفع، النقاخ: الخالص من كل شيء، أو الماء البارد والنوم في أمن وعافية، العلطبيس: الأملس البراق.

٢ . الغطاريس: جمع غطريس، وهو المتكبر، العقنفس: السيء الخلق، الغرنق: الأبيض الناعم، الخربصيص: القرط في الأذن، العيطموس: المرأة الطويلة الجميلة.

٣ . عقنقل: كثيب من الرمل المتراكم، قدموس: قديم، جوب الفيافي: اجتياز الصحارى.

السؤال الرابع:

جاء في كتاب الصناعتين ص ٣٤:

"...حدثني سعيد بن حميد، قال: نظر رجل إلى علقمة، وتحته بغل مصريّ حسن المنظر؛ فقال: إن كان مخبر هذا البغل كمنظره فقد كمل، فقال أبو علقمة: والله لقد خرجت عليه من مصر، فتنكّبت الطريق مخافة السّرّاق، وجور السلطان؛ فبينما أنا أسير في ليلة ظلماء قتماء طخياء(١) مدلهمّة حندس (٢) داجية، في صحصح (٣) أملس، إذ أحسن بنبأة (٤) من صوت نغر (٥)، أو طيران ضوع (٦)، أو نغض سبد (٧)؛ فحاص عن الطريق متنكّبا لعزّة نفسه، وفضل قوّته، فبعثته باللّجام فعسل (٨)، وحرّكته بالركاب فنسل (٩)، وانتعل الطريق يغتاله معترما، والتحف الليل لا يهابه مظلما، فو الله ما شبّهته إلا بظبية نافرة، تحفزها فتخاء شاغية (١٠)، قال الرّجل: ادع الله وسله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة، قال: ولم؟ قال: ليجيزك الصّراط بطفرة (١١).

المطلوب:

١ . ما الذي أخل بفصاحة المفرد في هذا النص؟

٢ . هل ترى فيه إخلالا بفصاحة المركّب؟ اشرحه.

قاموس المفردات:

(١) طخياء: مظلمة.

(٢) الحندس: الليل المظلم.

(٣) الصحصح: ما استوى من الأرض.

(٤) النبأة: الصوت الخفي.

(٥) نغر: فرخ العصافير.

(٦) ضوع: طائر من طيور الليل.

(٧) النغص: التحرك.

والسّبد: طائر ليّن الريش إذا وقع عليه قطرتان من الماء جرى.

(٨) عسل: اضطرب في عدوه وهزّ رأسه.

(٩) نسل: أسرع.

(١٠) فتخاء: عقاب لينة الجناح، والشاغية: وصف لنوع منها.

(١١) الطفرة: الوثبة المرتفعة.

****

الفصل الثانى

علـــم البيـــان

المبحث الأول:
في علـــم البـــيان

تعريفه:

أ . لغة:

جاء في اللسان (بين): «البيان: ما بيّن به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانا: اتّضح، فهو بيّن...والبيان: الفصاحة واللّسن، وكلام بيّن فصيح، والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبيّن من الرّجال السّمح اللّسان الفصيح الظريف العالي الكلام القليل الرّتج»، فالبيان بداءة: الإفصاح والوضوح والقدرة على التّصرّف في الكلام وتصريفه في وجوه شتّى، ولهذا أضيف إلى الإفصاح شرط الذّكاء والذائقة الفنّية لاكتشاف المعنى أو لتحليل الصورة، فالبيان إذا لا يكتفي بإظهار المعنى المباشر، بل يطلب من المتذوّق أن يكتشف بذكائه معنى المعنى.

من هنا كان للتخييل دور أساسي في صنع الصورة البيانيّة التي تخاطب بدورها ذكاء المتلقّي وثقافته وذائقته الفنّية، والبيان من الكلام العالي أي أنّه لا يبحث عن الفصيح فحسب، بل هو يتوخّى الأفصح والأعلى؛ ففيه التفنّن في إلباس الصورة الشعرية لباس الغموض الفنّي ببعدها عن المباشرة، ومطالبتها المتلقّي بتحليل عناصرها تمهيدا لاكتشاف كنهها وجوهرها، وقد جاء في القرآن الكريم (الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ* عَلَّمَهُ الْبَيانَ) الرحمن : ١ . ٤ ومعنى البيان هنا أيضا: الفصاحة والوضوح واللّسن.

ب . اصطلاحا:

جاء في كتاب التعريفات «البيان عبارة عن إظهار المتكلّم المراد للسامع» فالجرجاني اكتفى بجانب الوضوح وأهمل جانب الذكاء والقصد إلى

الأعلى من طرائق التعبير عن المعاني، أما المحدثون فقد تنبّهوا إلى هذه الطرائق في التعبير عن المعنى مركّزين على جانب التخييل والتصوير، فجاء في معجم المصطلحات العربية: «هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة» وكأنه يريد القول: إيراد المعنى مرّة بطريق التشبيه، وإيراده ثانية من طريق المجاز، وثالثة من طريق الكناية، وهكذا.

إنّه باختصار: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة، متفاوتة في وضوح الدلالة، وكان محقا القائل: «إن البيان العربي هو علم دراسة صورة المعنى الشعري، أما البديع والعروض والقافية فهي علوم تهتمّ أساسا بالصورة الصوتيّة في التعبير الشعري».

البيان كما فهمه النّقاد والبلاغيّون:

عقد الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بابا من أبواب كتابه البيان والتبيين بعنوان : باب البيان ، حاول أن يوضّح فيه معنى البيان ودلالته فقال: «والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عزوجل يمدحه، ويدعو إليه، ويحثّ عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم»، وركّز الجاحظ على وظيفة البيان فحصرها في التعبير الواضح عن المعنى الخفيّ. فكيف يوفّق الشاعر أو المبدع إلى حلّ هذه الإشكالية؟ يوضّح الجاحظ هذا الرأي، أو هو يحاول توضيحه بقوله: «والبيان: اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضّمير، حتّى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع».

فالمعنى في نظر الجاحظ مقنّع ومضمر وعلى المبدع أن يكشف هذا القناع، ويظهر هذا المضمر المستكنّ في النفوس لأنّ غاية الأمر الفهم

والإفهام بأية طريقة وبأي وسيلة، هذا الكلام على الوضوح والإظهار والإبانة أهمل العناية بالجانب الفنّي، أي الطريقة الواجب اعتمادها للكشف عن المعاني المضمرة، ففنّية التعبير هي الجانب الذي يعنى به البيان لا الكلام كيفما اتّفق.

وبقي فهم الجاحظ للبيان سائدا إلى أن ظهر كتاب السّكاكي (ت ٦٢٦ هـ) (مفتاح العلوم) الذي غدا فيه البيان علما مستقلا من علوم البلاغة الثلاثة، وقد عرّفه السكّاكي بقوله: «هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه» وموضوعات البيان عند السكّاكي وتلاميذه هي : التشبيه والمجاز والكناية.

ويأتي بعد السكّاكي الخطيب القزويني (ت ٧٣٤ هـ) ليعرّفه التعريف الذي بقي متداولا في كتب البلاغة إلى يومنا هذا، حيث يقول: «وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»، وهذا هو التعريف الذي اعتمده معجم المصطلحات العربية الذي تقدّم ذكره.

البيان والدلالة:

إن تأثّر الخطيب القزويني بالبحث المنطقي حمله على تقديم علم البيان بمقدّمة تحدّث فيها عن أنواع الدلالة. فلقد ذهب الخطيب القزويني إلى أن «دلالة اللفظ: إمّا ما وضع له، أو على غيره» وتحدث عن:

أ . الدلالة الوضعيّة:

وهي – كما يفهم من كلامه– التي يتطابق فيها المدلول مع اللفظ الذي وضع له من غير زيادة أو نقصان، كدلالة لفظ (البيت) على البيت الحقيقي.

ب . الدلالة التّضمّنية:

وهي –كما يفهم من كلامه– التي يدلّ اللفظ فيها على جزء ما وضع له كأن يطلق البيت على غرفة منه، لأن جزء المعنى متضمّن في المعنى الكلّي وداخل فيه كالغرفة بالنسبة إلى البيت.

ج . الدلالة الالتزامية:

وهي –كما يفهم من كلامه– التي يدلّ فيها اللفظ على لازم معناه الموضوع له كدلالة الإنسان على الضّحك، ودلالة الأسد على الشجاعة. فمعنيا الضحك والشجاعة غير داخلين في مفهوم كلمة (إنسان) وكلمة (أسد) ولكنّهما أمران لازمان لهما، وقد جمع الدلالتين: التضمّنية، والالتزامية تحت عنوان الدلالة العقلية، وذهب البلاغيّون المتأخّرون إلى أن علم البيان لا يتعلّق البحث فيه بالدلالة الوضعية؛ لأنّ التعبير المستخدم في معناه الأصلي ليس فيه زيادة أو نقصان في وضوح الدلالة، أمّا الدلالتان الأخريان فهما لبّ الدراسة البيانية ؛ لأنّ المعنى الواحد قد يكون جزءا من معنى آخر أو لازما له ، فإذا استخدم اللفظ الدال على ذلك المعنى، وأريد به معنى آخر مرتبط به ارتباط التّضمّن أو الالتزام كان هناك مجال للتفاوت في وضوح الدلالة وغموضها.

وسنرى أثر هاتين الدلالتين في أسلوبي المجاز المرسل والكناية بشكل واضح، وسوف نلمح ظلالهما في الاستعارة، والتشبيه ولو على تفاوت بين مظهر منه وآخر.

****

المبحث الثانى
التشبيه وأنواعه

التشبيه

تعريفه:

التشبيه لغة:

هو التّمثيل، شبّهت هذا بذاك، مثّلته به، والتشبيه.

اصطلاحا:

بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بإحدى أدوات التشبيه المذكورة أو المقدّرة المفهومة من سياق الكلام، والتعريف الجامع هو: صورة تقوم على تمثيل شيء (حسّي أو مجرّد) بشيء آخر (حسّي أو مجرّد) لاشتراكهما في صفة (حسّية أو مجرّدة) أو أكثر، وقد عرّفه القزويني بقوله: «التشبيه : الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»، وهذا يعني أنّ المتشابهين ليسا متطابقين في كل شيء.

التشبيه في نظر البلاغيين:

ذهب قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ ه) إلى أن التشبيه «إنّما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمّهما، ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها» وهذا التعريف موافق لما جاء به بعد حين من الدّهر الخطيب القزويني الذي تقدّم ذكره ولو كان المتأخّر أقلّ وضوحا من المتقدّم، ويزيد فهم الرّماني للتشبيه التعريف وضوحا، فالرمّاني (ت ٣٨٦ ه)، ذهب إلى أنّه «العقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل»، وقد قسمه الرمّاني إلى:

أ . تشبيه حسّي، كماءين، وذهبين، يقوم أحدهما مقام الآخر.

ب . تشبيه نفسي، كتشبيه قوّة عنترة بقوّة غيره من الأبطال.

والتقسيم الثاني الذي ذهب إليه جاء فيه:

–تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، وتشبيه السّواد بالسّواد.

.–تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه الشدّة بالموت، والبيان بالسّحر الحلال.

والتقسيم الثالث جاء فيه:

–تشبيه بلاغة، كتشبيه أعمال الكفّار بالسّراب.

–تشبيه حقيقة، كتشبيه الدينار بالدينار.

والملاحظ أن الرمّاني قد أتعب نفسه في التفصيل والإتيان بتسميات مختلفة ومتعدّدة، لأن بعض التسميات مكرّرة أو هي نفسها في الدلالة والوصف، فتشبيه الحقيقة هو نفسه تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، وتشبيه البلاغة هو نفسه تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، أما عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ ه) فذهب إلى أنّه يوجد نوعان من التشبيه، نرى في أحدهما وجه الشبه قائما فعلا في كلا الطرفين، كأن يكون مدركا بإحدى الحواس، أو هو أمر عقلي راجع إلى الفطرة، وسمّى هذا النوع من التشبيه (التشبيه الحقيقي الأصلي)، أما في ثانيهما فلا يتحقق وجه الشبه فعلا في كلا الطرفين، بل يوجد في أحدهما على الحقيقة، وفي الآخر على التأويل كما في قولنا: كلامه كالعسل في حلاوته، فالحلاوة قائمة حقيقة في العسل، ولكنها غير حقيقية في الكلام، وهذا التشبيه يسمّيه عبد القاهر تشبيه التمثيل، وربّما أطلق عليه اسم الشّبه العقلي لأن التأويل من عمل العقل، هذا التشبيه التمثيلي الذي نادى به عبد القاهر مختلف عن تشبيه التمثيل الذي تعارف عليه البلاغيون كما سنرى لاحقا.

أركان التشبيه:

تواضع البلاغيون على أنّ للتشبيه أربعة أركان هي:

المشبّه:

وهو الركن الرئيس في التشبيه، تخدمه الأركان الأخرى، ويغلب ظهوره، لكنّه قد يضمر للعلم به على أن يكون مقدّرا في الإعراب، وهذا التقدير بمنزلة وجوده، مثاله قول عمران بن حطّان مخاطبا الحجّاج (الكامل):

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

فلفظ أسد خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنت، وعليه يكون المشبّه ضميرا مقدّرا في الإعراب، وهو ماثل في المعنى وإن لم يظهر بلفظه، والفتخاء: الناعمة.

المشبّه به:

تتوضّح به صورة المشبّه، ولا بدّ من ظهوره في التشبيه، يشترك مع المشبّه في صفة أو أكثر إلّا أنّها تكون بارزة فيه أكثر من بروزها في المشبّه.

* يسمّى المشبّه والمشبّه به طرفي التشبيه.

وجه الشبّه:

هو الصفة المشتركة بين المشبّه والمشبّه به، وتكون في المشبّه به أقوى وأظهر مما هي عليه في المشبّه، قد يذكر وجه الشّبه، وقد يحذف كما سيأتي، وإذا ذكر جاء غالبا على إحدى صورتين هما:

أ . مجرورا ب (في)، كما في قول ابن الرومي:

يا شبيه البدر في الحس ـن وفي بعد المنال

ب . تمييزا، ومثاله قول أحده :

يا شبيه البدر حسنا وضياء ومنالا

وإذا جاء على خلاف هاتين الصورتين، فلا بدّ من تأويله بإحداهما، مثال ذلك قول أحدهم:

العمر مثل الضّيف أو كالطّيف ليس له إقامة

وتأويل وجه الشبه: العمر مثل الضّيف أو كالطيف في قصر إقامته.

أداة التشبيه

هي كل لفظ دلّ على المشابهة، وقد تكون:

أ . حرفا

كالكاف، كما في قوله تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) يس: ٣٩.

أو كما قال أبو القاسم الشابّي:

عذبة أنت كالطفولة كـــالأحلام كاللحن كالصّباح الـــــجديد

كالسّماء الضحوك كالليلة القمراء كالـــــــورد كابتسام الوليد

وقد كرّر الأداة (الكاف) ثماني مرّات في البيتين، كما تكون كأن أداة التشبيه كما في قول الطيّب صالح في رواية عرس الزين «والزين واقف في مكانه، في قلب الدائرة، بقامته الطويلة وجسمه النحيل، فكأنه صاري المركب».

ب . اسما:

والأسماء المتداولة في هذا الباب، هي: مثل، شبه، مثل، مماثل، قرن، مضارع، محاك، وما كان بمعناها أو مشتقّا منها، مثال ذلك قول المجنون في ظبية:

أيا شبه ليلى لا تراعي فإنّني لك اليوم من وحشيّة لصديق

وقول آخر:

كم وجوه مثل النهار ضياء لنفوس كالليل في الإظلام

ج . فعلا:

والأفعال المحتملة في هذا الباب هي: شابه، حاكى، ضارع، ماثل، ومضارع هذه الأفعال وما شابهها، وأمثلته قول أحدهم:

تفّاحة جمعت لونين قد حكيا خدّي حبيب ومحبوب قد اتّفقا

وكقول آخر:

وكأنّ البنفسج الغضّ يحكي أثر اللّطم في خدود الغيد

تحدّث الجرجاني عن دور الأداة ودلالتها بقوله: «تقول: زيد كالأسد أو مثل الأسد، أو شبيه بالأسد، فتجد ذلك كلّه تشبيها غفلا ساذجا ثم تقول: كأنّ زيدا الأسد، فيكون تشبيها أيضا، إلا أنّك ترى بينه وبين الأوّل بونا بعيدا؛ لأنّك ترى له صورة خاصة، وتجدك قد فخّمت المعنى، وزدت فيه بأن أفدت أنّه من الشجاعة وشدّة البطش، وأنّ قلبه قلب لا يخامره الذّعر، ولا يدخله الرّوع بحيث يتوهّم أنه الأسد بعينه، ثم تقول: لئن لقيته ليلقينّك منه الأسد، فتجده قد أفاد هذه المبالغة لكن في صورة أحسن وصفة أخص، وذلك أنّك تجعله في (كأنّ) يتوهّم أنه الأسد، وتجعله هاهنا يرى منه الأسد على القطع، فيخرج الأمر عن حدّ التوّهّم إلى حدّ اليقين» لهذا عدّ التشبيه البليغ الذي حذف منه وجه الشّبه وأداة التشبيه أقوى انواع التشبيه لأنّه يرفع المشبّه إلى مرتبة المشبّه به إلى حدّ المماثلة التامّة.

أمثلة موضّحة:

قال الشاعر:

كم وجوه مثل النهار ضياء لنفوس كالليل في الإظلام

في البيت تشبيهان:

١ . يشبّه وجوه بعض الناس بالنهار في ضيائها وجمالها (في الأوّل).

٢ . يشبّه في الثاني نفوس هؤلاء بالليل في تجهّمها وإظلامها.

في الأول: المشبه: وجوه، المشبّه به: النهار، أداة التشبيه: مثل (اسم). وجه الشّبه: ضياء.

في الثاني: المشبه: نفوس، المشبّه به: الليل، وجه الشبه: الإظلام، أداة التشبيه: الكاف (حرف).

وقال آخر:

أنت مثل الغصن لينا وشبيه البدر حسنا

في البيت تشبيهان:

في الأول: المشبّه: أنت، المشبّه به: الغصن، أداة التشبيه: مثل، وجه الشبه: لينا.

في الثاني: المشبّه: أنت، المشبّه به: البدر، أداة التشبيه: شبيه، وجه الشّبه: حسنا.

تقسيم طرفي التشبيه إلى حسّي وعقلي

ينقسم طرفا التشبيه (المشبّه والمشبّه به) إلى حسيّين أو عقليين، أو مختلفين.

١ . الطرفان الحسّيان:

وهما اللذان يدركان بإحدى الحواس، ويكونان:

أ . من المبصرا:

إذا كانا يدركان بالبصر من الألوان والأشكال والمقادير والحركات وما إلى ذلك، كقول الشاعر:

أنت نجم في رفعة وضياء تجتليك العيون شرقا وغربا

شبّه الممدوح بالنجم في رفعته وضيائه وذكر العيون آلة البصر التي ترى المشبّه والمشبّه به، فالطرفان حسّيان يقعان تحت البصر، ومثله تشبيه الخدّ بالورد، وتشبيه الوجه بالقمر، وتشبيه الشعر بالليل.

ب . ويكونان من المسموعات:

مثال ذلك تشبيه صوت المغنّي بصوت البلبل، ومنه قول امرئ القيس في رجل غاظه ميل زوجته نحوه:

يغطّ غطيط البكر شدّ خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتّال

شبّه أمرؤ القيس الزوج الهائج بصوت الفتيّ من الإبل الذي شدّ خناقه بحبل ليروّض، والطرفان حسّيان مسموعان.

ج . ويكونان من المذوقات:

ومنه تشبيه الريق بالشهد والخمر، أو كقول الشاعر:

كأنّ المدام وصوب الغمام وريح ال،خزامى وذوب العسل

يعلّ بهـا برد أنيـــــابها إذا النجم وسط السّماء اعتدل

فالخمر وماء الغيوم وذوب العسل تشبّه جميعا بريق الحبيبة، المشبّه والمشبّه به من المذوقات.

د . ويكونان في المشمومات:

كتشبيه رائحة فم الحبيبة بالمسك وأنفاس الطفل بعطر الزهر.

هـ . ويكونان في الملموسات:

كتشبيه الجسم بالحرير في قول الشاعر:

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر

٢ . الطرفان العقليّان:

وهما اللذان يدركان بالعقل والوجدان، والمقصود بالوجدان تلك المشاعر النفسية من ألم، ولذّة، وغضب، ورضا، وسعادة، وشقاء، وما إلى ذلك، فلو شبّهنا العلم بالحياة كان طرفا التشبيه عقليّين، فلا العلم محسوس ولا الحياة وإنّما يدركان بالعقل وحده، وهناك تشابيه يخترعها العقل وليس لها كيان خارجي سمّاها البلاغيون بالتشابيه الوهمية. وهي ما لا يدرك بإحدى الحواس، ولكنّه لو وجد فأدرك، لكان مدركا بها، ومثالها، قوله تعالى في شجرة الزقّوم التي تخرج في أصل الجحيم **(طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ)** الصافات: ٦٥، فالشياطين ليس لها وجود خارجي محسوس، بل هي من عالم الغيب؛ لذلك فرؤوسها غير معروفة إلّا ما أخبرت به الشريعة، لكنها لو وجدت فأدركت لكان إدراكها عن طريق حاسة البصر، وكذلك القول في ما قاله امرؤ القيس الشاعر العربى القديم:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فالغول وأنيابها مما لا يدرك باحدى الحواس، ولكنها لو أدركت لكان ادراكها من طريق حاسة البصر، وأعلم أن الوهمّي لا وجود لهيئته ولا لجميع مادّته ، والخيالي جميع مادّته موجودة دون هيئة.

٣ . الطّرفان المختلفان:

وهما اللذان يتكوّنان من مشبّه حسّي ومشبّه به عقلي، أو العكس.

أ . تشبيه المعقول بالمحسوس:

ومثاله قوله تعالى **(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً)** البقرة : ١٧١، فالكفر شيء عقلي، والمشبّه به الناعق الذي يصوّت للأغنام حسّي.

وكقول الشاعر:

إنّ حظّي كدقيق في يوم ريح نثروه

ثمّ قالوا لحفاة في أرض شوك إجمـــــعوه

فالمشبّه (الحظّ) أمر معنوي يدركه العقل، والمشبّه به (الدقيق) أمر حسّي يدركه اللمس والبصر.

ب . تشبيه المحسوس بالمعقول:

ومثاله قوله تعالى **(إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ)** الصافات: ٦٤ . ٦٥، فالمشبه (طلعها) حسّي يدرك بالعين واللمس، والمشبّه به (رؤوس الشياطين) عقلي.

وكقول الشاعر:

وندمان سقيت الراح صرفا وأفق الليل مرتفع السّجوف

صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دقّ في ذهن لطيف

فالمشبه (صفاء الخمر وصفاء زجاجتها) حسّي يدرك بالعين، أمّا المشبه به (معنى دقّ) فعقلي لا يدرك بالحواس، ومثل هذا كثير في شعر المحدثين.

طرفا التشبيه من حيث الإفراد والتركيب

١ . المفرد وأنواعه:

المفرد بلاغيا: كل ما ليس مركّبا، نحو: الولد نظيف، الولدان نظيفان، الأولاد نظيفون،ويكون المفرد:

١ . **مطلقا:** إذا لم يقيّد بشيء نحو : ثغر كالدرّ ، وخدّ كالورد ، ولحظ كالسهم.

٢ . **مقيّدا:** إذا أتبع بإضافة، أو وصف، أو حال، أو ظرف، أو سوى ذلك، ويجب أن يكون لهذا القيد تأثير في وجه الشّبه، نحو: الساعي بغير طائل كالرّاقم على الماء، وطرفا التشبيه يمكن أن يكونا مطلقين، أو مقيدين، أو مختلفين، أي أن يكون أحدهما مطلقا والثاني مقيّدا، نحو: الشمس كالمرآة في يد المشلول، واللؤلؤ المنظوم كالثّغر.

٢ . المركّب وأنواعه:

المركّب بلاغيا: هو الصورة المكوّنة من عدد من العناصر المتشابكة والمتماسكة.

قد يكون طرفا التشبيه:

أ . مركّبين، نحو قول المعرّي:

كأنّ سهيلا والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها إمامها

فالمشبه مركّب من سهيل والنجوم الأخرى وراءه، والمشبّه به مركّب من الإمام القائم في المحراب ومن المصلين الذين اصطفوا وراءه، ومثاله قول بشّار بن برد:

كأن مثار النّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

المشبه مركب من النقع مثارا فوق الرؤوس، ومن السيوف اللامعة المتهاوية على رؤوس الأعداء، والمشبّه به مركّب أيضا من الليل الدامس المظلم، ومن الكواكب اللامعة المتهاوية.

ب . مختلفين:

كأن يكون المشبه مفردا والمشبّه به مركّبا نحو قوله:

وحدائق لبس الشقيق نباتها كالأرجوان منقّطا بالعنبر

المشبه هو (الحدائق) مفرد مقيّد بالوصف، والمشبّه به مركّب من الأرجوان المنقّط بالعنبر، أو أن يكون المشبّه مركّبا والمشبّه به مفردا نحو قوله:

لا تعجبوا من خاله في خدّه كلّ الشقيق بنقطة سوداء

المشبه مركب من الخال والخد، والمشبه به مفرد وهو (الشّقيق)، ولعلّك لاحظت أنّه متى ركّب أحد الطرفين فلا يكاد يكون الآخر مفردا مطلقا بل يكون مركّبا أو مفردا مقيّدا كما رأيت في الأمثلة السابقة.

طرفا التشبيه باعتبار تعدّدهما

يعمد الأدباء والشعراء أحيانا إلى تشبيه عدّة أشياء مفردة بعدّة أشياء مفردة، وهذا الضرب من التشبيه قسمه البلاغيون أقساما هي:

١ . التشبيه الملفوف:

هو ما تعدّد طرفاه على أن يؤتي بالمشبّهات أوّلا على طريق العطف وغيره، ثم يؤتي بالمشبّهات بها كذلك، ومثاله قول الشاعر:

ليل وبدر وغصن شعر ووجه وقدّ

خمر ودرّ وورد ريق وثغر وخدّ

ففي البيت الأول تعدّد المشبّه في الشطر الأول، فهناك ثلاثة مشبّهات هي: الليل والبدر والغصن على طريقة العطف بالواو، وفي الشطر الثاني ثلاثة مشبّهات بها وهي شعر ووجه وقدّ، وهكذا نرى أن الشاعر شبّه الشعر بالليل، والوجه بالبدر، والقدّ بالغصن، ولعلّك لاحظت أنه عند ما تعدّد الطرفان معا نتج أكثر من تشبيه، وقل مثل ذلك في البيت الثاني.

٢ . التشبيه المفروق:

وهو ما تعدّد طرفاه أيضا على أن يؤتي بكل مشبّه إلى جانب ما شبّه به على التوالي، ومثاله قول المرقّش الأكبر:

النّشر مسك لوجوه دنا نير وأطراف الأكفّ عنم

ففي البيت ثلاثة تشابيه لم يفصل فيها بين المشبّه والمشبّه به، وهي: تشبيه النّشر بالمسك، والوجوه بالدنانير، وأطراف الأكفّ بالعنم.

٣ . تشبيه التسوية:

وهو ما تعدّد فيه المشبّه وبقي المشبّه به مفردا، ومثاله قول لبيد ابن ربيعة العامري:

وما المال والأهلون إلّا ودائع ولا بدّ يوما أن تردّ الودائع

فالمشبّه متعدد (المال والأهلون) والمشبّه به مفرد (ودائع).

٤ . تشبيه الجمع:

هو عكس تشبيه التسوية، يفرد فيه المشبّه، ويتعدّد المشبّه به، نحو قول شوقي يصف طائرة:

ذهبت تسمو فكانت أعقبا فنسورا فصقورا فحماما

المشبه مفرد: الطائرة، المشبه به مركّب (أعقبا+ نسورا+ صقورا+ حماما)، وكقول الآخر:

كأنّما يبسم عن لؤلؤ منضدّ أو برد أو أقاح

المشبه مفرد هو الأسنان، المشبه به مركّب (اللؤلؤ المنظوم+ البرد+ الأقاح).

****

تمارين:

١ . أذكر أحوال طرفي التشبيه في ما يأتي:

قال الشاعر:

كأنّ قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

وقال:

الخدّ ورد ، والصّدغ غالية والرّيق خمر، والثّغر كالدّرّ

وأيضًا:

شعر الحبيب وحالي كلاهما كاللّيالي

وثغره فـــــي صفاء وأدمعي كاللآلي

وأيضًا:

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسّيف والسّيل والنّار

وأيضًا:

فرعاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو ليل أسحم

فكأنّها فيه نهار مشرق وكأنّـــــه ليل عليها مظلم

وأيضًا:

وعينان ، قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وأيضًا:

أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنّما أهدى له أخلاقه

وأيضًا:

والشمس من بين الأرائك قد حكت سيفا صقيلا في يد رعشاء

وأيضًا:

كأنّ فجاج الأرض وهي عريضة على الخائف المطلوب كفّة حابل

****

أقسام التشبيه باعتبار الأداة ووجه الشّبه

أولا: باعتبار الأداة:

يقسم التشبيه باعتبار الأداة إلى:

١ . تشبيه مرسل:

وهو ما ذكرت فيه الأداة. مثال ذلك قوله:

إنّما الدّنيا كبيت نسجه من عنكبوت

حضرت الأداة وحضورها كما يقول أحدهم: «يبقي على البعد أو الفضاء الفاصل بين الطّرفين في تصنيف الموجودات».

٢ . تشبيه مؤكّد:

وهو ما حذفت منه الأداة ، مثاله قول أحدهم:

أنت نجم في رفعة وضياء تجتليك العيون شرقا وغربا

فأداة التشبيه محذوفة والتقدير: أنت مثل النّجم، أو أنت كنجم...ومن المؤكّد ما أضيف فيه المشبّه به إلى المشبّه، ومثاله:

والرّيح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

والشاعر يريد تشبيه الأصيل بالذّهب، والماء باللّجين، وهذا الضرب من التشبيه أبلغ، وأوجز، وأشدّ وقعا في النفس، والنكتة في بلاغته أنّه يجعل المشبّه والمشبّه به شيئا واحدا، وقد وفّق الأزهر الزنّاد إلى تفسير علّة التسمية فقال: «بغياب الأداة ينتقل التركيب من إخبار بالمشابهة إلى إخبار بالمشبّه به عن المشبّه، فهو هو، وهذا مدخل التوكيد فيه، لذلك سمّي بالمؤكّد، وفيه تضيق المسافة الفاصلة بين الطرفين فتصل التطابق أو تكاد...فغياب الأداة إيهام بالتطابق، وهو أمر يرتبط بغياب شحنة المعقولية التي يقوم عليها الجمع بين طرفي التشبيه والتي تعبّر عنها الأداة».

ثانيا: باعتبار وجه الشّبه:

يقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى:

١ . تشبيه مجمل:

وهو ما حذف منه وجه الشّبه، وبغيابه أجمل المتكلّم في الجمع بين الطرفين فسمّي مجملا، مثاله قول ابن الرومي في مغنّ:

فكأن لذّة صوته ودبيبها سنة تمشّى في مفاصل نعّس

لم يذكر الشاعر وجه الشّبه لأنّه يدرك بسرعة وهو التلذّذ والارتياح، وقد كشف الأزهر الزنّاد عن سرّ التسمية وأثرها بقوله: «وبهذا الإجمال لم يقصد الباثّ إلى تحديد مجال التقاطع وإنّما تركه غائما، وهو دون شكّ يعوّل في ذلك على حدس سامعه في الاهتداء إلى ذلك المجال».

٢ . تشبيه مفصّل:

وهو ما ذكر فيه وجه الشّبه. مثال ذلك قوله مفتخرا:

أنا كالماء إن رضيت صفاء وإذا ما سخطت كنت لهيبا

فوجه الشّبه مذكور في التشبيه وهو (صفاء+ لهيبا)، ورأى الأزهر الزّناد أنّ«بذكره يفصّل المتكلّم وجه الجمع بين طرفي التشبيه فيسهّل على المتقبّل (السامع أو القارئ) العثور على السّمة التي يشترك فيها الطرفان، ولذلك سمّي هذا التشبيه مفصّلا، وهذا التفصيل يبقي على الانفصال الموجود بين طرفي التشبيه إذ يشعر الباثّ سامعه بأنه يقرن بين الطرفين في نقطة واحدة وهما شيئان متمايزان في سائر السّمات».

ثالثا: باعتبار الأداة ووجه الشّبه معا:

يقسم التشبيه باجتماعهما وافتراقهما إلى:

١ . مؤكّد مفصّل:

وهو ما حذفت منه الأداة : وذكر وجه الشّبه، ومثاله:

أنت نجم في رفعة وضياء تجتليك العيون شرقا وغربا

الأداة محذوفة، ووجه الشبه مذكور (الرّفعة والضياء).

٢ . مرسل مجمل:

وهو ما ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشّبه، كقوله:

وكأنّ البنفسج الغضّ يحكي أثر اللّطم في خدود الغيد

فالمشبه: البنفسج، والمشبّه به، أثر اللّطم في خدود الملاح، ووجه الشّبه محذوف (اللون)، والأداة: يحكي مذكور.

٣ . تشبيه بليغ :

وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشّبه معا، فهو مؤكّد مجمل، وهو أعلى التشابيه بلاغة ومبالغة في آن، ويأتي على صور متعدّدة تبعا لموقع المشبّه به من الإعراب، وأشهر هذه الصور:

أ. أن يكون المشبّه به خبرا للمشبّه، كقول (عمر أبو ريشة):

يا بلادي وأنت نهلة ظمآن وشبّابة على فم شاعر

فالمشبّه أنت، والمشبّه به: نهلة ظمآن (وهي في محلّ رفع خبر المبتدأ)، الأداة: محذوفة، ووجه الشّبه مثلها محذوف وتقديره (الجمال)، وهناك تشبيه آخر، المشبّه: أنت، المشبّه به: شبّابة وهو معطوف على الخبر (نهلة)، والأداة محذوفة ووجه الشّبه مثلها محذوف، ومثاله أيضا قول السيّاب:

عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر أوشرفتان راح ينأى عنهما القمر

فوجه الشّبه وأداة التشبيه غائبان وبغيابهما فتح الباب أمام الذهن ليتطّلع إلى وجوه اللقاء الممكنة بين الطرفين فإذا هما شيء واحد، أو كالواحد وهذا مدخل البلاغة فيه.

ب . أن يكون المشبّه به حالا للمشبّه، ومثاله: دخل نمرا، وخرج هرّا فالمشبّه محذوف تقديره هو، والمشبّه به نمرا (حال) والأداة ووجه الشّبه غائبان محذوفان، والقول نفسه يصحّ في: خرج هرّا، ومثاله أيضا قول علي محمود طه:

صاح بالشّمس لا يرعك عذابي فاسكبي النّار في دمي وأريقي

وخذي الجسم حفنة من رماد وخذي الرّوح شعلة من حريق

في البيت تشبيهان: في الأول: المشبّه: الجسم، المشبّه به: حفنة، وهو حال من المشبّه، والأداة ووجه الشّبه محذوفان.

في الثاني: المشبّه: الرّوح، والمشبّه به: شعلة، وهو حال من المشبّه، والأداة ووجه الشّبه محذوفان.

ج ـ أن يكون المشبّه به مضافا إلى المشبّه:

ومثاله: لبس المريض ثوب العافية، فالمشبّه العافية، والمشبّه به ثوب، والعافية مضافة إلى الثوب، ومنه أيضا قوله الياس فرحات:

هلّا مننت بلقيا أستردّ بها فجر الشّباب فشمس العمر في الطّفل؟

في البيت تشبيهان:

في الأول: المشبّه (الشباب) مضاف إليه، المشبّه به: (فجر) أضيف إلى المشبّه .. والأداة ووجه الشّبه محذوفان.

في الثاني: المشبّه: العمر (مضاف إليه)، والمشبّه به: الشمس (مضاف إلى المشبّه) والأداة ووجه الشّبه محذوفان، وهذا من باب إضافة المشبّه به إلى المشبّه.

د ـ أن يكون المشبّه به مفعولا به ثانيا ، والمشبّه مفعولا أوّلا ،

ومثاله قول المازني في وردة ذابلة:

ولو استطعت حنيت أضلاعي على ذاوي سناها

وجـــعلت صدري قبرها وجعلت أحشائي ثراها

في البيت الثاني تشبيهان:

في الأوّل: المشبّه: صدري مفعول به أوّل ل (جعل)، والمشبّه به: قبرها: مفعول به ثان ل (جعل)، والأداة ووجه الشّبه محذوفان.

هـ ـ أن يكون المشبّه به مفعولا مطلقا مبيّنا للنّوع.

على أن يكون المشبّه مصدرا مقدّرا من الفعل العامل فيه، ومثاله قول المازني في الوردة الذابلة:

وضممتها ضمّ الحبي ب عسى يعود لها صباها

فالمشبّه: الضمّ (مصدر مقدّر من الفعل ضممتها) والتقدير ضممتها ضمّا كضمّ...والمشبّه به: ضمّ: مفعول مطلق من الفعل ضمّ، والأداة ووجه الشّبه محذوفان.

و . أن يكون المشبّه به مجرورا ب (من) البيانية التي تبينّ المشبّه

كقول الشابّي:

ورفرف روح غريب الجمال بأجنحة من ضياء القمر

المشبّه: أجنحة الروح، المشبّه به: ضياء القمر مسبوق ب (من) البيانية التي بيّنت نوع الأجنحة، والأداة ووجه الشّبه، محذوفان.

ز. أن يكون المشبّه به أحد التوابع.

ومثاله قوله تعالى: **(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً)** الأحزاب: ٤٥. شبّه عليه الصلاة والسلام بالمصباح المنير الذي يهدي البشر إلى الله تعالى، فالمشبّه النبيّ والمشبّه به: سراجا (معطوف على الحال شاهدا) والأداة ووجه الشبه محذوفان.

****

تمارين:

١ . بيّن أنواع التشبيه في ما يأتي:

قال الشاعر:

وسهيل كوجنة الحبّ في اللو ن وقلب المحبّ في الخفقان

قال الشاعر:

وشربت الفجر خمرا في كؤوس من أثير

قال الشاعر:

سحبت الدّياجي فيه سود ذوائب لأعتنق الآمال بيض ترائب

قال الشاعر:.

ثوب الرياء يشفّ عمّا تحته فإذا اكتسيت به فإنّك عاري

قال الشاعر:

علق المجاعة مصّ بعض دمائه وتعسّف الحكام مصّ الباقي

قال الشاعر:

وقف التاريخ في محرابها وقفة المرتجف المضطرب

قال الشاعر:

أأمانيّ كلّها من تراب وأمانيك كلّها من عسجد

قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

قال الشاعر: .

إذا نلت منك الودّ فالمال هيّن وكل الذي فوق التراب تراب

قال الشاعر:

فعلت بنا فعل السّماء بأرضه خلع الأمير وحقّه لم نقصه

قال الشاعر:

إذا الدولة استكفت به في ملمّة كفاها فكان السّيف والكفّ والقلبا

قال الشاعر:

لك سيرة كصحيفة ال أبرار طاهرة نقيّة

****

وإليك موجزا بأقسام التشبيه:

١ . باعتبار الأداة:

الأداة مذكورة . ت مرسل

الأداة محذوفة . ت مؤكد

٢ . باعتبار وجه الشبه:

وجه الشبه مذكور . ت مفصّل

وجه الشبه محذوف . ت مجمل

٣ . باعتبار الأداة ووجه الشّبه معا:

الأداة محذوفة ووجه الشبه مذكور . ت مؤكّد+ مفصّل

الأداة مذكورة ووجه الشبه محذوف . ت مرسل+ مجمل

الأداة محذوفة ووجه الشبه محذوف . ت بليغ . مؤكّد+ مجمل

صور التشبيه البليغ:

١. المشبّه به خبر للمبتدأ.

٢. المشبّه به حال للمبتدأ.

٣. المشبّه به مضاف إلى المشبّه.

٤. المشبّه به مفعول ثان والمشبّه مفعول أول.

٥. المشبّه به مفعول مطلق والمشبّه مصدر مقدّر.

٦. المشبّه به مجرور بمن.

٧. المشبّه به أحد التوابع.

****

تشبيه التّمثيل وغير التمثيل

أولا: تشبيه التمثيل:

١ . تعريفه:

هو ما كان وجه الشّبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، أو هو الذي يكون وجه الشّبه فيه مركّبا.

٢ . شروطه:

اشترط البلاغيّون تركيب الصورة فيه، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته أو تركيبته حسّية أو معنوية، وكلّما كانت عناصر الصورة أكثر، كان التشبيه أبعد وأبلغ.

٣ . أمثلته:

قال ابن الرومي (المنسرح):

أوّل بدء المشيب واحدة تشعل ما جاورت من الشّعر

مثل الحريق العظيم تبدؤه أوّل صول صـــــغيرة الشّرر

في هذين البيتين مشهدان متفقان في وجوه عديدة تلتقي لتكوّن في النهاية وجها واحدا، للأجزاء المكوّنة لكل مشهد قيمة في تجمّعها ولا قيمة لكل جزء منفردا، يتكوّن المشهد الأول من الأجزاء الآتية: غزا الشيب شعر الشاعر فبدأ بشعرة بيضاء ثم توسّع في هذا الشعر الأسود حتّى قضى عليه قضاء مبرما فاتسعت دائرة البياض وتوارت دائرة السّواد. المشهد الثاني المقابل يتمثّل في حريق عظيم بدأ بشرارة صغيرة ثم أخذت نيرانه تتوسّع ملتهمة كل ما يقع في طريقها، لنبحث في هذين المشهدين المتقابلين عن عناصر تشبيه التمثيل: فبين المشيب وبقايا النار جامع البياض المشرب بالسواد الخجول، والمشيب يأتي على الشعر بأكمله تدريجيا والنار تلتهم كل ما يقف بوجهها تدريجيا أيضا، الشّيب يبدأ بشعرة واحدة والحريق العظيم تبدؤه شرارة صغيرة وهكذا فإن تشبيه التمثيل هذا يتكوّن من:

تشبيه (١) وفيه: مشبه (١) + مشبّه به (١) + وجه شبه (١)
تشبيه (٢) وفيه : مشبه (٢) + مشبّه به (٢) + وجه شبه (٢)
تشبيه (٣) وفيه : مشبه (٣) + مشبّه به (٣) + وجه شبه (٣)

والخلاصة أن تشبيه التمثيل مكوّن من مشبّه متعدّد+ وجه شبه متعدّد+ مشبّه به متعدّد، ولهذا كان تشبيه التمثيل محتاجا إلى عمليّات ذهنية متلاحقة لفكّ أجزائه والتعرّف إلى التماثل القائم بين هذه الأجزاء. فالصورة فيه أشبه بالومضات (فلاش) المتلاحقة التي تجسّد في النهاية صورة متكاملة ولهذا كانت الصورة مشهدا متتابعا ، ويجب التنبّه إلى أن المعوّل عليه في التعدّد هو وجه الشّبه فقط، وقال ابن المعتزّ (الوافر):

كأنّ سماءنا لمّا تجلّت خلال نجومها عنـــد الصّباح
رياض بنفسج خضل نداه تفتّح بينه نور الأقاحـــي

في البيتين مشهدان متفقان في وجوه عديدة، يتكوّن المشهد الأوّل من الأجزاء الآتية: تجلّت السّماء صباحا وقد انتشرت نجومها فبدت زرقاء بيضاء صفراء، المشهد الثاني يتكوّن من الأجزاء الآتية: رياض متناثرة يجتمع فيها البنفسج المخضّل بالندى إلى جانب روضة أخرى من الأقاحي التي تفتّح زهرها الأبيض المشوب بصفرة، لنبحث في هذين المشهدين المتقابلين عن عناصر تشبيه التّمثيل: بين تجلّي السماء وانتشار نجومها صباحا وبين رياض البنفسج المتناثرة جامع الزرقة البنفسجية، بين ندى الصبّاح وندى الأزاهير جامع اخضلال ونداوة، بين روض النجوم المتناثرة ورياض الأرض جامع التناثر في النجوم الذي يقابله تناثر الورود وتفرّقها في المرج الفسيح الذي يشبه رحابة السّماء وتداخل الألوان البنفسجي والأبيض والأصفر، يشبه تداخل ألوان السّماء وقد انحسرت النجوم في مكان منها وتناثرت في مكان آخر، فوجه الشّبه كما ترى صورة منتزعة من متعدّد، ولو حذفنا شيئا من المشبّه أو المشبّه به لاختلّ التوازن بين أجزاء المشهدين المتقابلين، واختل

معه وجه الشّبه الجامع بين أجزاء صورتي المشبّه والمشبّه به، وقال البحتري في شقائق النعمان (الطويل):

شقائق يحملن النّدى فكأنه دموع التّصابي في خدود الخرائد

عناصر المشهدين متضافرة لتقديم صورة متكاملة، لنبحث عن هذه العناصر:

في المشهد الأول : شقائق النعمان+ الندى الذي يكلّلها

في المشهد الثاني : خدود الملاح+ دموع التّصابي المتساقطة

ووجه الشبه مكوّن من قطرات جميلة صافية تلمع فوق سطوح جميلة بيضاء مشوبة بصفرة، ولهذا كان وجه الشّبه منتزعا من متعدّد لا يمكن حذف جزء من المشبّه أو المشبّه به وإلّا فإن وجه الشبه الجامع بين أجزائهما يختلّ ويتعطّل تناسق الصورة وتفقد رونقها.

****

ثانيا: تشبيه غير التّمثيل:

١ . تعريفه:

هو ما كان فيه وجه الشّبه مفردا، أي أنه ليس صورة منتزعة من متعدّد.

٢ . أمثلته:

قال البحتري (الخفيف):

هو بحر السّماح والجود فازدد منه قربا تزدد من الفقر بعدا

فعناصر التشبيه هي: المشبه: الممدوح، والمشبّه به: البحر، وجه الشبه: الجود، وهكذا فإنّ وجه الشبه ليس صورة منتزعة من متعدّد كما في تشبيه التمثيل، وقال أبو بكر الخالدي (م الرّمل):

يا شبيه البدر حسنا وضياء ومنالا
وشبيه الغصن لينا وقواما واعتدالا
أنت مثل الورد لونا ونسيما وملالا
زارنا حتـــى إذا ما سرّنا بالقرب زالا

فالمشبّه في هذه الأبيات جميعا هو الحبيب. أمّا المشبّه به فهو على التوالي: البدر والغصن والورد، وجه الشّبه فيها صفات متعدّدة ولكنّها مفككة وليست مجموعة ومترابطة لتكوّن كلّا موحّدا إذ يمكن الاكتفاء بجزء منها وحذف أجزاء أخرى، ويبقى التشبيه قائما بعكس ما يحدث في تشبيه التمثيل الذي تكوّن عناصره كلّا مستقلّا لا يتخلّى عن أيّ جزء من أجزائه ولا يقوم إلّا بعناصره مجتمعة.

تمرينات:

١ . ميّز تشبيه التمثيل من غيره فيما يأتي:

–قال تعالى: **(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ)** الكهف: ٤٥.

-وأيضًا: **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً)** الحديد: ٢٠.

وقال الشاعر:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرّمضاء بالنّار

وقال أيضًا:

كأنّ مثار النّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقال أيضًا:

عيناه عالقتان في نفق كسراج كوخ نصف متّقد

وقال أيضًا:

والصّدر فارقه الرّجاء فقد غدا وكأنّه بيت بلا مصباح

وقال أيضًا:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

التشبيه الضّمني

١ . تعريفه:

هو تشبيه لا يوضع فيه المشبّه والمشبّه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب، من هذا التعريف ندرك أنّه مضمر في النّفس وأنه يؤثر فيه التلميح على التّصريح، كما أن التسمية تشير إلى أن التشبيه غير ظاهر في الكلام وإنّما على المتلقّي أن يفهمه ضمنا لأنّه يخاطب ذكاءه وفطنته، ويؤتى بهذا النوع من التشبيه ليدلّ على أنّ الحكم الذي أسند إلى المشبّه ممكن وإن لم يغب عنه جانب التّخييل.

٢ . مزاياه:

من أهم المزايا التي يختصّ بها نذكر ما يأتي:

. لا تظهر فيه الأداة أو وجه الشّبه بشكل صريح.

. لا يرتبط فيه المشبّه بالمشبّه به ارتباطهما المعروف في باقي أنواع التشبيه، بل تلمح بينهما العلاقة من خلال المعنى الذي يكاد يخفيه التشبيه.

. هو أبلغ من غيره، وأنفذ في النفوس والخواطر لاتخاذه جانب التلميح واكتفائه به.

. يكثر وروده في الحكم والمواعظ والأمثال.

. كثيرا ما يأتي في جملتين متواليتين لكلّ منهما معناها المستقلّ، وقد تربط جملة المشبّه به بجملة المشبّه بحرف الواو، كقول أبي فراس (الطويل):

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

أو بحرف الفاء كقول المتنبي (الوافر):

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال

٣ . أمثلته:

قال ابن الرّومي (الخفيف):

قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النّور في القضيب الرّطيب

لم يقل ابن الرّوم : الفتى وقد وخطه الشّيب كالغصن الرّطيب عند إزهاره لكنّه أتى بهذا المعنى ضمنا؛ ولهذا سمّي هذا التشبيه ضمنيا، وقال أبو فراس (الطويل):

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

لم يقل أبو فراس: أنا إذا اشتدّ الخطب على قومي كالبدر الذي ينير الليلة الظلماء، بل ترك للمخاطبين أن يستنتجوا ذلك، وسيذهب ذهنهم إلى مثل هذا التشبيه لمجرّد سماعهم عجز البيت، وقال غيره (الكامل):

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السّهام ونزعهنّ أليم

يفهم البيت على أنّه تشبيه وإن غاب منه ما يدلّ على التشبيه، لقد سكت الشاعر عن جزء من الصورة مطالبا القارئ أو المتلقّي باكتشافه، وليس من الصعب اكتشافه. فالمتلقّي يدرك أنّ الشاعر يشبّه نظرة الحبيبة وإعراضها برشق السّهام ونزعها من جسد المطعون بها، فعينا الحبيبة ترشق بنظراتها الحبيب أو تعرض عنه فيكون لرشقها وإعراضها ألم كألم يحدثه الطّعن بالسّهام أو نزعها من جسد المطعون، وقال المتنبّي (الخفيف):

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام

لم يقل المتنبي إنّ المتهاون بكرامته مرّة لا يحسّ بذلّ جديد يصيبه لأن كرامته ميتة، والكرامة الميتة كالجسد الميت لا يتألم إذا جرح جرحا جديدا، لقد مثّل الشطر الثاني المشبّه به ولم يرتبط بالصدر الذي يمثّل المشبّه بأيّ رابط لفظي، لكنّ الارتباط المعنوي عوّض عن الرابط اللفظي.

٤ . بين التشبيه الضمني والتشبيه التمثيلي:

. الأداة ووجه الشّبه محذوفان وجوبا في التشبيه الضمني لكنّهما محذوفان جوازا في التشبيه التمثيلي.

. المشبّه والمشبّه به معنى مركّب في كليهما من عدّة أجزاء.

. تربط المشبّه بالمشبّه به علاقة نحوية أو إعرابية في التشبيه التمثيلي، ولا يرتبطان في التشبيه الضمني بأية علاقة نحوية، بل تكون جملة المشبّه به استئنافية لا محلّ لها من الإعراب غالبا.

تمرينات:

١ . بيّن نوع التشبيه، وادرس أركانه واشرحه مبيّنا جماليّة الصورة:

قال الشاعر:

ضحوك إلى الإبطال وهو يروعهم وللسيّف حدّ حين يسطو ورونق

قال الشاعر:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذّهب الرّغام

قال الشاعر:

تزدحم القصّاد في بابه والمنهل العذب كثير الزّحام

قال الشاعر:

نرجو النّجاة ولم تسلك مسالكها إنّ السفينة لا تجري على اليبس

قال الشاعر:

والليل تجري الدّراري في مجرّته كالرّوض تطفو على نهر أزاهره

قال الشاعر:

إنّ الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

قال الشاعر:

إطراقه يخشى ويرهب صمته والسّيف محذور وإن لم يشهر

قال الشاعر:

لهيب قلبي أفاض الدّمع من بصري والعود يقطر ماء حيث يحترق

قال الشاعر:

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إنّ السّماء ترجّى حين تحتجب

التشبيه المقلوب

١ . تعريفه:

هو تشبيه معكوس يصير فيه المشبّه مشبّها به بادّعاء أنّ وجه الشّبه فيه أقوى.

٢ . أمثلته:

قال أحدهم (الكامل):

وبدا الصّباح كأنّ غرّته وجه الخليفة حين يمتدح

فالمشب : غرّة الصّباح وتباشيره، والمشبّه به: وجه الخليفة، فالشاعر شبّه تباشير الصّباح في ضيائها بوجه الخليفة عندما يسمع المديح، وقد خرج الشاعر على المألوف في تشبيهه لأنّ المألوف والمتداول أن يشبّه وجه الخليفة بتباشير الصّباح ولكنّ الشاعر عكس الآية بهدف الإغراب والمبالغة.

وقال بشّار (البسيط):

وذات دلّ كأنّ البدر صورتها باتت تغنّي عميد القلب سكرانا

المشبّه به: المرأة الحبيبة المدلّلة، والمشبّه: البدر، فالشاعر كسر المألوف وخلخل العلاقة بين المشبّه والمشبّه به، فقلب المعادلة وصدم القارئ لأنّه خرج على المألوف الذي استنفدت طاقاته الإيحائية، فخرّب العلاقة بين المشبّه والمشبّه به ليأتي بجديد مبالغ فيه، فبدل أن تشبه المرأة الجميلة البدر صار البدر عند الشاعر يشبه المرأة الجميلة لأن وجه الشّبه أقوى في المشبّه به منه في المشبّه، ولهذا فإنّ الشاعر يزعم أن المرأة الحبيبة أجمل من البدر، لهذا عدّ التشبيه المقلوب ضربا من التجديد في الأساليب القديمة.

٣ . من شروطه:

الشرط الرئيس في استعماله ألّا يرد إلّا في ما جرى عليه العرف لدى العرب، وهذا الشرط يحافظ على وضوح صورة القلب والانعكاس، وإلّا فإنه يصبح ضربا من الإلغاز.

٤ . قيمته البلاغية:

سمّاه ابن جنّي: غلبة الفروع على الأصول، وقال: لا تجد شيئا من ذلك إلّا والغرض منه المبالغة»، وسمّاه ابن الأثير في المثل السائر «الطّرد والعكس» وقال عنه عبد القاهر «هو جعل الفرع أصلا والأصل فرعا»، لهذا عدّ التشبيه المقلوب ضربا من المبالغة وكسر الرتابة في التشابيه المبتذلة التي مجّها الذوق وملّها السمع لفرط تردّد المعاني المكرورة، فجاء التشبيه المقلوب ليقضي على الرّتابة ويحدث ضربا جديدا من العلاقات القائمة بين طرفي التشبيه.

تمارين:

١ . دلّ على التشبيه المقلوب واشرحه، واذكر أسباب كونه تشبيها مقلوبا:

قال الشاعر:

كأنّها حين لجّت في تدفّقها يد الخليفة لمّا سال واديها

قال الشاعر:

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثّنيها

قال الشاعر:

وترى الغصون تميل في أوراقها مثل الوصائف في صنوف حرير

التشبيه الدائري (الاستطرادي)

١ . تعريفه:

هو تشبيه يبدأ ب (ما)، وينتهي ب (الباء) الداخلة على أفعل التفضيل (أفعل)، وغالبا ما يكون بين الفاتحة والخاتمة وصف للمشبّه به عادة قد يطول، وقد يقصر، ليعود في النهاية ويفضّل المشبّه على المشبّه به، وتكمن قيمته في طول نفسه واتساع عبارته حيث يترك الشاعر المشبّه ليسترسل في تصوير المشبّه به وتعظيمه ليعود في البيت الأخير منه فيفضّل المشبه على المشبّه به زيادة في المبالغة والغلوّ، وأكثر ما ورد بأربعة أبيات، وقد يرد في أقلّ من أربعة، وربّما سمّي استطراديا لأنّ الشاعر يستطرد فيه إلى تفصيل أجزاء المشبّه به والإحاطة بمناحي الجمال والعظمة فيه ليكون في تفضيل المشبّه عليه إغراق في التعظيم والمفاضلة.

٢ . أمثلته:

قال النابغة (البسيط):

قال الشاعر:

فما الفراتـ إذا هبّ الرّياح لـــه ترمــي أو اذيّه العبرين بالزّبد
يمدّه كلّ واد مترع لـــــــــجب فيه ركـام من الينبوت والخضد
يظلّ من خوفه الملّاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنّجــد
يوما بأجود منه سيب نافلـــة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

أراد النابغة أن يبالغ في وصف كرم النعمان فذهب إلى أنّ الفرات في حال فيضانه الأكبر عند ما ترمي أمواجه بالزّبد على ضفّتيه ويصبّ فيه كل واد ممتلئ بالماء تصطخب أمواجه فتجرّ كل شيء وتجتاح الركام من طمي ونبات، في هذه الحالة من الهيجان يدخل الخوف إلى قلب الملّاح فيبقى معتصما بمقدّمة السفنية وقد أدركه الخوف وأعياه الجهد، الفرات في حالة فيضانه هذه ليس أجود من النّعمان الذي لا يحول عطاء اليوم عنده دون

عطاء الغد في حين يبقى فيضان الفرات موسميّا وعند ذوبان الثلج في المنبع، لقد استطرد الشاعر في وصف المشبّه به ثم استدار فنّيا ليجعل المشبّه أعلى رتبة من المشبّه به في حال كماله هذا، وقد استخدم الشاعر الواسطة اللفظية وما...بأجود، وقد سلك الأخطل طريق النابغة، فتوكأ عليه في تشبيهه الاستطرادي هذا محدثا تعديلا طفيفا فيها عند ما قال (البسيط):

وما الفرات إذا جاشت غـــــــواربه في حافتيه وفي أوساطه العشر
وزعزعته ريــاح الصّيف واضطربت فوق الجآجئ من آذيّة غـــــدر
مسحنفر مـــــن جبال الروم يستره منها أكافيف فيـــــها دونه زور
يوما بأجـــــــود منه حين تسأله ولا بأجهر منه حين يجتـــــــهر

وقد أفرط الأعشى في اعتماد هذا الضرب من التشبيه، وربما كرّره في القصيدة الواحدة، ومن أطول التشابيه الاستطرادية تشبيه للأعشى وصف فيه الأسد، وعدّته عشرة أبيات (٣) من البيت ٢١ إلى البيت ٣٠، وفي القصيدة نفسها عاد إلى تشبيه استطرادي عدّة أبياته ثلاثة، لكنّه في وصف كرم الممدوح هذه المرّة، من البيت ٣١ وحتى البيت ٣٣، وقد أحصيت في ديوان الأعشى ثلاثة عشر تشبيها استطراديا حافظ أكثرها على العدد الشائع من الأبيات وهو أربعة أبيات، وقد يقصر التشبيه الاستطرادي إذ يقتصر على بيت واحد كقول طفيل الغنوي (الطويل):

فما أمّ أدراص بأرض مطلّة بأغدر من قيس إذا الليل أظلما

وقد أحصى أحد الباحثين ثمانية وخمسين تشبيها استطراديا، لاثنين وعشرين شاعرا جاهليا، كان نصيب الأعشى وحده منها ثلاثة عشر تشبيها.

تمرينات:

١ . دلّ على التشابيه الاستطرادية واشرحها مبيّنا قيمتها الجمالية:

قال الأعشى (ديوانه ص ٩٩):

وما فلج يسقي جــداول صعنبى له شرع سهل على كلّ مــورد

ويروي النبيط الزرق من حجراته ديارا تروّى بالأتيّ المـــــــعمّد

بأجود منه نائلا، إنّ بعضــهم كفى ماله باسم العطاء الموعّد

****

المبحث الثالث
الاستعارة وأنواعها

الاستعارة

١ . تعريفها:

أ . لغة:

جاء في اللسان (عور): «استعار: طلب العاريّة، واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه ان يعيره إياه...واستعاره ثوبا فأعاره إياه»، وفي المعجم الوسيط: «استعار الشيء منه: طلب أن يعطيه إياه عاريّة، ويقال: استعاره إيّاه»، فالدلالة المعجمية للفظ تؤكد أن الاستعارة نقل الشيء من حيازة شخص الى شخص آخر، ويعلّل أحد القدامي التسمية بقوله: «وإنما لقّب هذا النوع من المجاز بالاستعارة اخذا لها من الاستعارة الحقيقية، لأن الواحد منا يستعير من غيره رداء ليلبسه، ومثل هذا لا يقع الا من شخصين بينهما معرفة ومعاملة، فتقضي تلك المعرفة استعارة احدهم من الآخر، فاذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من اجل الانقطاع».

ب . اصطلاحا.

جاء في التعريفات: «الاستعارة ادّعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبّه من البيتين كقولك: لقيت أسدا وانت تعني به الرّجل الشجاع»، فالتعريف ركّز على العلاقة القائمة بين التشبيه والاستعارة لأن الاستعارة أساسا تشبيه حذف أحد طرفيه (المشبه أو المشبه به)، وهي في معجم المصطلحات العربية اقتباس قول السكّاكي: «هي تشبيه حذف منه المشبّه به او المشبه، ولا بدّ أن تكون العلاقة بينهما المشابهة

دائما ، كما لا بدّ من وجود قرينة لفظية أو حالّية مانعة من إرادة المعنى الأصلي للمشبّه به أو المشبّه»، ولم يبعد تعريف الجرجاني عن هذا عندما قال: «اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدلّ الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله اليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعاريّة»، واضح من هذه التعريفات انّ الاستعارة مجاز تنزاح فيها الدّلالة عن المعنى الأساسي للفظ الى أحد المعاني الإضافية.

ولهذا ذهب المحدثون إلى أنها أبلغ من التشبيه: «لأن التشبيه مهما تناهي في المبالغة، فلا بدّ فيه من ذكر المشبّه والمشبّه به، وهذا اعتراف بتباينهما، وأنّ العلاقة ليست الا التشابه والتداني، فلا تصل الى حدّ الاتحاد، بخلاف الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد والامتزاج، وإن المشبه والمشبه به صارا معنى واحدا» وكلام الهاشمي هذا استكمال لما بدأه الجرجاني بقوله: «وهي أمدّ ميدانا ، وأشدّ افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها».

مكانة الاستعارة:

رأى أرسطو أن: «أعظم الأساليب حقّا هو أسلوب الاستعارة ... وهو آية الموهبة»، ولم يزد الغربيّون على ما جاء من إجلالها واحترامها في كلام الجرجاني، ولكن لا بدّ من ذكر بعض أقوالهم لإظهار أهميتها في الدراسات النقدية الحديثة، أما جان كوهين فيرى أن الاستعارة: «تشكل الخاصيّة الأساسية للغة الشعرية»، ويرى الناقد الأسباني tessaG.y.agetrO: «ان الشعر هو اليوم الجسر العالي للاستعارات ... ويحتمل أن تكون الاستعارة طاقة الانسان الأكثر خصبا» ويذهب آخر الى جعلها سلطان المجاز.

أركان الاستعارة

ذكرنا ان الاستعارة تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، فلا بدّ فيها إذا من:

١. مشبّه.

٢. مشبّه به وما إليهما.

فالمشبّه والمشبّه به، وإن لم يظهرا فيها واضحين، فإنهما مقدران ولهذا أطلق مصطلح (الجامع) على وجه الشّبه، وهكذا تصبح أركانها كما يأتي.

١. المستعار له: (المشبّه).

٢. المستعار منه: (المشبّه به).

٣. الجامع: (وجه الشبه).

٤. المستعار: هو عند بعضهم لفظ المشبّه به وان كان محذوفا، وعند السكاكي لفظ المشبّه، لكن لا بدّ من اعتماد رأي الجمهور، مثال ذلك: بكت السّماء فضحكت الأرض، شبّهت السماء الممطرة بامرأة تبكي، والأرض المرتوية بامرأة تضحك، أما الاستعارة فتكمن في الفعلين (بكت وضحكت)، إذ شبّه انهمار المطر بالبكاء، وارتواء الأرض بالضحك، فيكون المستعار له (الانهمار والارتواء) والمستعار منه (البكاء والضحك)، لنبحث الآن عن أركان الاستعارة في المثال السابق:

١. المستعار له: المشبّه هو: السماء+ الأرض.

٢. المستعار منه: المشبّه به هو: المرأة في الحالين.

٣. الجامع وجه الشّبه (إنهمار المطر، إنهمار الدمع)، (إشراق الأرض . إشراق الوجه)

٤. المستعار: لفظ المشبه به وإن كان محذوفا في نظر الجمهور (المرأة).

ولا بد من قرينة تهدي الى وجود الاستعارة، وتكمن هذه القرينة في لفظ يشير إلى وجودها بعد ما نقل من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، وهو هنا (بكت+ ضحكت) فقد نقلا من معناهما الحقيقي (البكاء والضحك)

إلى معنى مجازي جديد (الإمطار+ الإرواء) وبذلك أشار الى وجود الاستعارة في اللفظين (السماء والأرض)، وليس ضروريا أن تكون القرينة لفظية دائما، فقد تكون حالية مفهومة من السّياق كما في قول المتنبي مخاطبا سيف الدولة(الكامل):

عيب عليك ترى بسيف في الوغى ما يفعل الصمصام بالصمصام؟

ففي لفظ (صمصام) الأول استعارة إذ شبه سيف الدولة بالصمصام (السيف) والقرينة حالية تفهم من السياق، وقال العكبري في معنى البيت: «أنت سيف في حدّتك ومضائك فلا تحتاج الى سيف».

أقسام الاستعارة

قال الخطيب القزويني: «الاستعارة تنقسم باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع، وباعتبار الثلاثة، وباعتبار اللفظ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله»، وهكذا قسم البلاغيون المحدثون الاستعارة إلى أقسام تبعا لاعتبارات محدّدة:

أ. باعتبار المستعار منه: الاستعارة مكنّية وتصريحية.

ب. باعتبار الجامع (لفظ الاستعارة): الاستعارة أصلية وتبعية.

ج. باعتبار الثلاثة (ما يقترن بطرفيها): الاستعارة مرشّحة ومجرّدة ومطلقة وتمثيلية، وسنأتي الى درس كل من هذه الأقسام دراسة مفصلة.

الاستعارة باعتبار المستعار منه

تقسم الاستعارة باعتبار ما يذكر من الطرفين إلى:

أولا: الاستعارة المكنيّة

عرّفها السّكاكي بقوله: «هي أن تذكر المشبّه وتريد به المشبّه به دالّا على ذلك بنصب قرينة تنصبها، وهي ان تنسب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبّه به المساوية مثل أن تشبّه المنيّة بالسبع، ثم تفردها بالذكر مضيفا اليها على سبيل الاستعارة التخييلية فتقول: مخالب المنيّة نشبت بفلان طاويا لذكر المشبّه به، وهو قولك: الشبيهة بالسّبع»، وشاهد السكّاكي مأخوذ من قول الشاعر (الكامل):

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

إذ شبّه الشاعر المنيّة بالسّبع، فالمستعار منه (السبع) محذوف، وكني عنه بشيء من خصائصه (الأظفار)، المستعار له (المنيّة) مذكور، القرينة (الأظفار) والجامع بينهما هو الاغتيال، لمزيد من التوضيح يمكن القول: هي الاستعارة التي حذف منها المستعار منه (المشبّه به) ورمز اليه بما يدلّ عليه من صفاته، ولا بدّ فيها من ذكر المستعار له (المشبّه)، مثال ذلك قوله تعالى: (وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) الذاريات: ٤١ شبّهت الريح التي لا تحمل المطر بالمرأة العاقر التي لا تحمل الجنين، فالمستعار منه المرأة محذوف، وكني عنه بصفة من صفاته (العقم) والمستعار له: الريح مذكور، والقرينة: العقيم، والجامع بينهما: عدم الإخصاب، ومثالها أيضا قول الحجّاج: «وإنّي لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنّي لصاحبها»، لقد شبّه الحجّاج رؤوس مخاطبيه بالثمار اليانعة، المستعار منه (الثمار اليانعة) محذوف وكني عنه بشيء من خصائصه (الإيناع)، المستعار له: الرؤوس مذكور، القرينة: أينعت، والجامع بينهما: الاستدارة والارتفاع فوق جذوع يمكن انفصالها عنها.

الاستعارة التصريحيّة

هي ما صرّح فيها بلفظ المستعار منه (المشبّه به) وحذف المستعار له (المشبّه) كقول المتنبّي مادحا سيف الدولة ومعرّضا بملك الرّوم(الطويل):

فأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يمشي أم الى البدر يرتقي

موطن المجاز هنا (إلى البحر يمشي، الى البدر يرتقي)، فالبحر والبدر خرجا عن معناهما الحقيقي ليدلا على شخص الممدوح (سيف الدولة) والعلاقة بين الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية تقوم على المشابهة، إذ شبّه سيف الدولة بالبحر في جوده على مذهب الأقدمين والمحدثين، وشبّهه بالبدر في رفعة مقامه، وسكت عن المشبه وذكر المشبّه به لهذا كانت الاستعارة تصريحية، مثال آخر من قول المتنبي أيضا (الوافر):

وألقى الشّرق منها في ثيابي دنانيرا تفرّ من البنان

شّبه دوائر الضوء المتسلّلة إليه عبر أوراق الشجّر بدنانير زئبقية تستعصي على الإمساك بها، فالمستعار منه الدنانير مذكور مصرّح بذكره، والمستعار له: الدوائر الضوئية محذوفة، والقرينة: ألقى الشرق والجامع بينهما: الاستدارة والبياض والصّفرة، ومثالها من القرآن الكريم قوله تعالى: (كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) ابراهيم: ١، شبّهت الآية الضلال بالظلمات، والهدى بالنور، والمستعار منه (الظلمات) مذكور مصرّح به، المستعار له: الضلال محذوف، الجامع بينهما: عدم الاهتداء. القرينة: الحالية.

في الصورة الثانية: المستعار منه: النور وقد صرّح به المستعار له: الهدى محذوف، الجامع بينهما: الاهتداء، والقرينة حالية.

صور مشتركة بين المكنّية والتصريحية.

قال ابن المعتزّ:

جمع الحقّ لنا في إمام قتل البخل وأحيا السّماحا

شّبه الشاعر البخل والسّماح بإنسان يقتل ويحيي، فالمستعار له: البخل والسّماح مذكوران، والمستعار منه: الإنسان محذوف وقد كني عنه بشيء من خصائصه (القتل والإحياء) والجامع بينهما: الموت والحياة، والقرينة: قتل وأحيا، وعلى هذا التفسير تكون الاستعارة مكنّية، لكن إذا أوّلنا البيت على الوجه الآتي:

المستعار منه: القتل والإحياء مذكوران، المستعار له: تجنّب البخل محذوف، وتجديد السّماح محذوف أيضا. والجامع بينهما: الزّوال والاندثار وتجديد السّماح، والقرينة: قتل وأحيا، وبهذا التأويل تكون الاستعارة تصريحية، لكن الوجه الأول أبين وأظهر؛ لأنه خال من التعسّف في التأويل، ومن هذا القبيل قول دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

في لفظ (ضحك) استعارة تصريحية، المستعار منه: الضحك مذكور، المستعار له: ظهور الشّيب محذوف، الجامع بينهما: الإشراق، القرينة: المشيب، ولكن يمكن تأويل البيت بشكل آخر هو: المستعار منه: الإنسان محذوف وقد كني عنه بشيء من خصائصه (الضحك). المستعار له: الشّيب مذكور، الجامع بينهما: التدرّج في ظهور البياض، القرينة: الضحك، وعليه تكون الاستعارة مكنيّة.

* تجدر الإشارة الى أن البلاغيين يذهبون إلى أن الاستعارة المكنيّة أبلغ من الاستعارة التصريحية لأنّها أكثر قدرة على تشخيص الصور وبعث الحياة فيها.

تمرينات:

١ . بيّن نوع الاستعارة في ما يأتي وأشرحها مبيّنا السبّب.

قال شوقي في رثاء عمر المختار:

يا ويحهم نصبوا منارا من دم يوحي الى جيل الغد البغضـــــــاء
يا أيّها السّيف المجرّد بالفلا يكسو السّيوف على الزمان مضـاء

وقال المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وقال أبو العتاهية مهنئا المهديّ بالخلافة:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها

وقال آخر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّهنّ أمان

وقال غيره في وصف مزيّن:

إذا لمع البرق في كفّه أفاض على الوجه ماء النّعيم

وقال شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزّمان تبسّم وثناء

وقال البحتري:

أتاك الرّبيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتّى كاد ان يتكلّما

وقال خليل مطران:

والأفق معتكر قريح جفنه يغضي على الغمرات والأقذاء

****

الاستعارة باعتبار الجامع

يكون لفظ الاستعارة، أي لفظ المستعار منه على رأي الجمهور:

أ. أصلا في الكلام أي جامدا.

ب. تابعا لذلك الأصل أي مشتقا.

وبذلك تنقسم الاستعارة قسمين هما:

١ . الاستعارة الأصلية:

وهي ما كان فيها لفظ المستعار منه جامدا، أي اسم جنس أو اسم معنى، مثال ذلك قول ابن العميد (الكامل):

قامت تظلّلني ومن عجب شمس تظلّلني من الشمس

لفظ الاستعارة هو (شمس) في عجز البيت إذ شبّه الفتاة بالشمس لإشراقها، فالمستعار منه: الشمس وقد صرّح بذكره، والشمس اسم جامد، لذلك كانت الاستعارة تصريحية باعتبار المستعار منه، المستعار له: الفتاة (محذوف)، والجامع بينهما: الإشراق والجمال، والقرينة: تظلّلني، وبذلك تكون الاستعارة تصريحية باعتبار المستعار منه، أصلية باعتبار لفظ الاستعارة، ومنها قوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) الاسراء: ٢٤، شبّهت الآية الذلّ بطائر، فالمستعار منه الطائر غير مذكور في الكلام وكني عنه بشيء منه (الجناح)، المستعار له: الذلّ، والجامع بينهما: الانقياد، والقرينة: أخفض، ولفظ الاستعارة (المستعار منه) الطائر اسم ذات بمنزلة الجامد، وبذلك تكون الاستعارة مكنّية تصريحية.

الاستعارة التبعيّة:

تكون الاستعارة تبعيّة اذا كان لفظ الاستعارة فيها:

. اسما مشتّقا.

. أو فعلا.

. أو اسم فعل.

. أو اسما مبهما.

. أو حرفا.

مثال ذلك قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) مريم: ٤ شبّهت الآية ظهور الشيّب باشتعال النار، المستعار منه: النار وقد استعار منها الاشتعال، المستعار له: الشّيب، الجامع بينهما: التّدرّج في الاشراق والوضوح، وقد اشتق من الاشتعال فعل (اشتعل) مصرّحا بذكر المستعار منه، فهي إذا: استعارة تصريحية لجهة المستعار منه، وتبعية لأن لفظ الاستعارة فعل (اشتعل)، وقال أبو ماضي (م. الكامل):

السّحب تركض في الفضاء الرّحب ركض الخائفين

ففي قوله: تركض استعارة تصريحية، فالشاعر شبّه حركة السّحب في السّماء، بالركض، والجامع بينهما السّرعة، والقرينة السّحب، لذلك يكون الشاعر قد حذف المستّعار له (تحرّك السّحب) واشتق من الركض فعل تركض مصرّحا بلفظ المستعار منه وهو فعل (تركض) فكانت الاستعارة تصريحية تبعيّة، ويمكن تاويل البيت بشكل آخر هو:

المستعار منه: الإنسان محذوف وقد كني عنه باحدى صفاته (الرّكض).

والمستعار له: السّحب (مذكور).

الجامع بينهم: السّرعة والقرينة (تركض)، فالاستعارة على هذا الوجه من التأويل استعارة مكنيّة وأصلية باعتبار لفظها.

تمرينات:

١ . اذكر نوع الاستعارة في ما يأتي بعد شرح أركانها وأبعاد صورتها.

قال الشاعر:

عضّنا الدّهر بنابه ليت ما حلّ بنابه

وأيضًا:

بلد صحبت به الشبيبة والصّبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد

وأيضًا:

يا كوكبا ما كان أقصر عمره وكذاك عمر كواكب الأسحار

وأيضًا:

ضوء يشعشع في سواد ذوائبي لا أستضيء به ولا أستصبح

بعت الشباب به على مقة لـه بيع الـــــعليم بأنّه لا يربح

وأيضًا:

إنّ التباعد لا يضرّ إذا تقاربت القلوب

وأيضًا:

حول أعشاشها على الأشجار قد تقاسمنا القيان وهي تغنّي

وأيضًا:.

دقّات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

وأيضًا:

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللّمم.

الاستعارة باعتبار ما يقترن بطرفيها

تكون الاستعارة باعتبار ما يقترن بها من صفات تلائم المستعار له أو المستعار منه.

أ. مرشّحة.

ب. مجرّدة.

ج. مطلقة.

ولا ينظر الى القرينة لأنها جزء من الاستعارة أصيل غير طارئ، أما الصفات فطارئة.

أ . المرشحة:

هي التي اقترنت بما يلائم المستعار منه فقط، نحو: رأيت أسدا في الجبهة يزأر، فالوصف يزأر يلائم المستعار منه (الأسد)، ولم نضف إلى المستعار له (البطل الشجاع) أيّ صفة، أما القرينة فموجودة (في الجبهة)، ولهذا صارت الاستعارة:

-تصريحية: لأن المستعار منه (الأسد) مذكور.

-أصلية: لأن لفظ المستعار منه (الأسد) جامد.

-مرشّحة: لأنه ذكر فيها ما يلائم المستعار منه (يزأر).

ومنها قول المتنبّي (البسيط):

أتى الزّمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم

شّبه المتنبّي الزمان بإنسان بجامع التطوّر والتحوّل من حال إلى أخرى، والمستعار منه (الإنسان) محذوف وكني عنه بشيء من خصائصه (بنوه) وهي القرينة، ثم أتى بما يلائم هذه الخاصة حين ذكر شبيبته والهرم، ولكنه لم يذكر ما يلائم المستعار له، لذلك كانت الاستعارة:

مكنيّة: لأن المستعار منه (الإنسان) محذوف ورمز إليه بما يدلّ عليه من صفاته (بنوه).

أصلية: لأن لفظ المستعار منه اسم جامد.
مرشّحة: لأنّه ذكر فيها ما يلائم المستعار منه (بنوه).

ب . المجرّدة:

هي التي اقترنت بما يلائم المستعار له دون المستعار منه، نحو: رأيت أسدا في الجبهة يرمي العدو بسهامه، فقد ذكر ما يلائم المستعار له (البطل الشجاع) حين قيل: يرمي العدو بسهامه، أما المستعار منه فلم يرد ما يلائمه. لذلك كانت الاستعارة مجرّدة، ومنه قول نعيمة في النهر المتجمّد:

يا نهر قد نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير

في البيت: استعارة مكنيّة؛ لأن الشاعر شبّه النهر بإنسان وحذف المستعار منه (الانسان) وكنى عنه بشيء من خصائصه (النداء)، واستعارة أصلية لأن لفظ المستعار منه اسم جامد، ومجرّدة لأن الشاعر أتى بما يلائم المستعار له (نضبت مياهك، وانقطعت عن الخرير) ولم يأت بما يلائم المستعار منه (الانسان).

ج . المطلقة:

وهي التي اقترنت بما يلائم المستعار منه والمستعار له معا، أو هي التي لم تقترن بما يلائم أيّا منهما، نحو: رأيت أسدا في الجبهة، لم يرد في هذه الاستعارة ما يناسب المستعار له (البطل)، ولا ما يناسب المستعار منه (الأسد) ولهذا سميت الاستعارة مطلقة، ونحو: رأيت أسدا في الجبهة يزأر ويرمي العدو بسهامه، لقد ورد في هذه الاستعارة ما يلائم المستعار له (البطل) وهي عبارة (يرمي العدوّ بسهامه)، كما ورد فيها ما يلائم المستعار منه (الأسد) وهو الفعل (يزأر) لهذا كانت الاستعارة مطلقة، وقال المتنبّي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم.

شبّه المتنبّي الغايات البعيدة السامية بالنجوم والجامع بينهم السمّو والرفعة وصعوبة المنال، وحذف المستعار له (الغايات البعيدة) وصرّح بلفظ المستعار منه (النجوم) لهذا كانت الاستعارة تصريحية ولأن لفظ المستعار منه جامد فالاستعارة أصلية، والشاعر لم يأت فيها بما يلائم أيّا من المستعار منه أو المستعار له فصارت الاستعارة مطلقة، وقال المتنبّي أيضا:

في الخدّ إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

الدموع الجارية حزنا على فراق الأحبة تشبه في انهمالها على وجه الحبيب المطر المتساقط بغزارة، لكنّ الشاعر بفطنته لاحظ فارقا بينهما لأنّ المطر يخلّف خضرة في الأرض التي يغيثها، في حين تخلّف الدموع المرض والشحوب في وجه الحبيب الشاكي بعاد حبيبه، فالاستعارة تصريحية أولا لأنّه صرّح فيها بلفظ المستعار منه (مطر) وحذف المستعار له (الدموع) وهي استعارة أصلية ثانيا لأن لفظ المستعار منه اسم جنس، وأخيرا إنّها استعارة مطلقة لأنّ الشاعر أتى بما يلائم كلّا من المستعار له (الخد) عند ما ذكر الدموع، والمستعار منه (المطر) عند ما ذكر (المحول).

* يجب التنبّه الى أن الحكم على الاستعارة وتصنيفها (مرشّحة أو مجرّدة أو مطلقة) لا يتم إلّا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. والقرينة بناء على ذلك لا تعد في جانب أي من المستعار له أو المستعار منه.

تمرينات:

١ . دل على نوع الاستعارة في ما يأتي معلّلا ذلك بشرح واف.

قال الشاعر:

يؤدّون التحيّة من بعيد إلى قمر من الإيوان باد

وقال أيضًا:

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

وقال أيضًا:

وليلة مرضت من كلّ ناحية فما يضيء لها نجم ولا قمر

وقال أيضًا:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وقال أيضًا:

يا بدر يا بحر يا غمامة يا لي بث الشّرى يا حمام يا رجل

وقال أيضًا:

وعد البدر بالزيارة ليلا فإذا ما وفى قضيت نذوري

وقال أيضًا:

والبحر كم ساءلته فتضاحكت أمواجه في صوتي المتقطع

وقال أيضًا:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضّت على العنّاب بالبرد

الاستعارة التمثيليّة

هي استعارة شائعة في الأمثال السائرة نثرا وشعرا ومن خصائصها:

. حذف المشبّه عادة.

. وحذف أداة التشبيه.

ولذلك عرّفت بأنّها: تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي، ومن أمثلتها القول المأثور: يدسّ السّمّ في الدّسّم، وهذا مثل يطلق في وصف من يظهر الخير ويبطن الشرّ، ولقد حذف منه المشبّه لأن تقدير الكلام: من يظهر الخير ويبطن الشرّ كمن يدسّ السّمّ في الدّسم، والمشبه (من يظهر الخير ويبطن الشرّ) محذوف، وأداة التشبيه محذوفة أيضا، ولكن بقي المشبه به، ولقد فهمنا المراد من المثل وهو المعنى المجازي لا المعنى الحقيقي بواسطة القرينة أو السّياق،وأريد بهذا القول التّمثيل، لهذا سمّيت الاستعارة تمثيلية، ومن أمثلتها قول الكميت معاتبا مؤيدي بني أمّية في حربهم ضدّ بني هاشم:

فيا موقدا نارا لغيرك ضوؤها ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فالشاعر شبّه هؤلاء بمن يشعل نارا ليضيء درب غيره وتبقى دربه مظلمة أو بمن يحتطب لينتفع غيره بما يحتطب، ففي كلّ من الصّدر والعجز استعارة تمثيلية، ومنها أيضا قول المتنبّي (الوافر):

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزلالا.

يصاب الإنسان المريض بمرارة في فمه حتى إذا شرب الماء العذب تذوّقه مرّا كالحنظل، ولكنّه لم يقصد هذا المعنى الظاهر من البيت بل قصد فيه حسادّه وعائبي شعره فنسب هذا العيب الى ذوقهم الشعرّي المريض وضعف إدراكهم الأدبي. فالمشبّه هنا حال حسّاده والمشبّه به حال المريض الذي يجد الماء الزّلال مرّا، لهذا كانت الاستعارة تمثيلية، ومنها ما جاء في المثل: «قطعت جهيزة قول كلّ خطيب»، وأصل المثل أنّ قوما اجتمعوا يتشاورون في قضيّة

الثأر لأحد قتلاهم وبينما هم يتشاورون جاءت فتاة اسمها جهيزة وأخبرتهم أن القاتل قد قتل، فقال أحد المتحاورين: قطعت جهيزة قول كلّ خطيب، وهو تركيب يتمثّل به في كل موطن يؤتى فيه بالقول الفصّل. فالمشبّه والمشبّه به صورة منتزعة من متعدّد.

تمرينات:

١ . دلّ على الاستعارة التمثيلية في ما يأتي واشرحها.

. إنّك لا تجني من الشوك العنب.

. أخذ القوس باريها.

. لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين.

. المورد العذب كثير الزّحام.

. لكلّ جواد كبوة.

. أصاب عصفورين بحجر واحد.

قال الشاعر:

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشّهد من إبر النّحل

وأيضًا:

إذا ما الجرح رمّ على فساد تبيّن فيه إهمال الطبيب

وأيضًا:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وأيضًا:

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

وأيضًا:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأيسر ما يمرّ به الوحول

وأيضًا:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

المبحث الرابع
الكناية وأنواعها

الكناية (أقسامها وأنواعها)

تعريف الكناية:

أ . لغة:

جاء في اللسان (كنى): «الكناية: أن تتكلّم بشيء وتريد غيره. وكنى عن الأمر بغيره يكني كناية: يعني إذا تكلّم بغيره ممّا يدلّ عليه»، فالكناية إذا إيماء الى المعنى وتلميح، أو هي مخاطبة ذكاء المتلقّي فلا يذكر اللفظ الموضوع للمعنى المقصود ولكن يلجأ إلى مرادفه ليجعله دليلا عليه. ومن هنا قول أحدهم (الطويل):

وإنّي لأكنو عن قذور بغيرها وأعرب أحيانا بها وأصارح.

لقد استخدم الشاعر (كنوت) والأفصح كنيت لأنّ المصدر كناية، ولم يسمع كناوة. فالكناية في نظر الشاعر عدم استخدام اللفظ الحقيقي بل هي لجوء الى لفظ آخر يشير الى المعنى ويومئ إليه، إنها طريقة للتعبير غير المباشر عن الأشياء.

ب . اصطلاحا:

جاء في معجم المصطلحات أن الكناية «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي»، هذا التعريف مأخوذ من تعريف السبكي الذي جاء فيه أنّها: «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد».

ج . تعريفات البلاغيين:

الكناية في نظر عبد القاهر هي: «أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه»، وهي كما عرّفها السّكاكي: «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: زيد طويل النّجاد، فينتقل منه الى ملزومه وهو طول القامة»، ولتوضيح هذين التعريفين نعطي المثلين الآتيين:

١. زيد طويل النّجاد (علاقة السيف) فالمثل كناية عن طول قامة زيد، ولكن لا مانع من إيراد المعنى الأصلي وهو طول علاقة السيف.

٢. حاتم كثير الرّماد، كناية عن كرمه فهو يشعل دائما نار القرى لهداية الضيفان. ولكن لا مانع أيضا من إيراد المعنى الأصلي وهو وفرة الرّماد حول بيته لأنّ النيران المشتعلة باستمرار تخلّف الرّماد الكثير المتراكم، ففي الكناية يتجاذب المعنيان الحرفي والمجازي الدلالة وللمتلقّي أن يفكّك الصورة ويدخل الى أعماقها.

بين الكناية والمجاز

المجاز هو أن يقصد باللفظ معناه المجازي دون جواز تفسيره على المعنى الحقيقي، أما الكناية فهي أن يقصد بها المعنى المجازي مع جواز أن يقصد بها المعنى الحقيقي كما رأينا.

مثال: ١. نبت الربيع. هنا لا يمكن ان يكون المقصود المعنى الحقيقي للربيع. فالمعنى المقصود هنا هو المعنى المجازي للربيع (العشب) ففي الجملة إذا مجاز.

مثال: ٢. فلان طويل الحزام. الاشارة هنا الى عظم بطن فلان واضحة. وفي المثال نوع من المجاز لأن المعنى تجاوز المعنى الحقيقي (طول الحزام) إلى المعنى المجازي (عظم البطن)، فالعبارة هنا تحمل معناها الحقيقي أيضا لأنّ عظيم البطن لا بدّ أن يكون طويل الحزام، وفي هذا القول

كناية، فالكناية إذا تخالف المجاز من جهة إمكان ارادة المعنى الحقيقي مع إرادة لازمة، أما المجاز فلا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي لوجود القرينة المانعة من إرادته.

أقسام الكناية:

تقسم الكناية تبعا لما تدل عليه الى ثلاثة أقسام، هي:

٣ . أ. كناية عن صفة:

هي الكناية التي يستلزم لفظها صفة.

يرد هذا النوع من الكناية كثيرا على ألسنة الناس في أحاديثهم اليومية، ففي مصر يقولون: هو ربيب أبي الهول، كناية عن شدّة الكتمان، وفي لبنان يقولون: فلان يشكو قلة الجرذان في بيته كناية عن فقره، كما يقولون: فلان عضّ إصبعه: كناية عن الندم، وهكذا، وقد وردت الكناية كثيرا في الشعر القديم والحديث، ومنها قول أبي ريشة (الرّمل):

كم نبت أسيافنا في ملعب وكبت أجيادنا في ملعب.

ففي كلّ من الصدر والعجز كناية لطيفة عن الخيبة والانتكاسة وهي كناية عن صفة، وكقول المتنبي (الطويل):

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

ففي الشطر الثاني كناية عن طول الوقوف وهي كناية عن صفة، كما أن في البيت تشبيها بليغا بين المصدر (وقوف) الذي اشتق منه الفعل أقف (في الشطر الأول وبين المصدر وقوف في الشطر الثاني)، ومنها أيضا قول الشاعر (الطويل):

أكلت دما إن لم أرعك بضرّة بعيدة مهوى القرط طيبّة النشر.

ففي الشطر الثاني (بعيدة مهوى القرط) كناية عن صفة هي طول عنق الضرّة، وينقسم هذا النوع من الكناية عند البلاغيين إلى قسمين:

١ . كناية قريبة:

وهي التي لا يحتاج فيها للانتقال من المعنى الحقيقي للكلام الى المعنى المجازي الى أكثر من خطوة واحدة، مثال: جاء في الحديث الشريف: اليد العليا خير من اليد السفلى فاليد العليا كناية عن العطاء واليد السفلى كناية عن الأخذ، فالمقصود من الحديث يدرك بسرعة لعدم وجود واسطة.

٢ . كناية بعيدة:

ويحتاج فيها إلى أكثر من خطوة واحدة للوصول الى المعنى المجازي المراد من الكلام، مثال: فلان كثير الرماد، فالمعنى المجازي هو (الكرم) لكن للوصول إليه لا بدّ من تفسيرات عدّة، كثرة الرّماد ناجمة عن كثرة الإشعال، وكثرة الإشعال عائدة الى كثرة الطبخ، ومن كان كثير الطبخ كان كثير الضيوف، وكثرة الضيوف تدل على الكرم.

٣ . كناية عن موصوف:

وهي الكناية التي يستلزم لفظها ذاتا أو مفهوما، ويكنى فيها عن الذات كالرجل والمرأة والقوم والوطن والقلب واليد وما إليه، نقول في لبنان: مدينة الشمس كناية عن بعلبك، ونقول مخاطبين أبناء مصر: يا أبناء النيل، ونقول عن العرب: هم أبناء الضاد كناية عن اللغة العربية، ومن أمثلتها قوله تعالى: (أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الزخرف: ١٨، ففي قوله تعالى: (يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ) أي في الزينة كناية عن موصوف هو البنات، وكقول المتنبي مفتخرا (البسيط):

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم.

ففي قوله (من تسعى به قدم) كناية عن موصوف هو الإنسان: أراد أنه خير الناس، ومنها قول جرير (الوافر):

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح.

ففي قوله (من ركب المطايا) كناية عن موصوف هو الناس، ومنها أيضا قول المتنبي عند فراقه سيف الدولة (الطويل):

وما ربّة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمّم.

فكنى (بربة القرط) عن المرأة و (برب الحسام) عن الرجل، ففي كليهما كناية عن موصوف، ومنها أيضا قول شوقي (الخفيف):

يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيل ما له مولعا بمنع وحبس؟

فلقد كنى شوقي (بابنة اليم) عن السفينة، وكنى ب (أبوك) عن البحر ففي كليهما كناية عن موصوف.

٣ . كناية عن نسبة:

هي الكناية التي يستلزم لفظها نسبة بين الصفة وصاحبها المذكورين في اللفظ، تنفرد عن النوعين السابقين بأن المعنى الأصلي للكلام غير مراد فيها، وبأننا نصرّح فيها بذكر الصفة المراد إثباتها للموصوف، وإن كنا نميل بها عن الموصوف نفسه الى ما له اتصال به، أمثلة: هذا بيت شرف، إذ نسبنا الشرف الى أصحاب البيت من طريق إسنادنا هذا الشرف الى البيت نفسه، ومنها قول الكميت (الطويل):

أناس بهم عزّت قريش فأصبحت وفيهم خباء المكرمات المطنّب

ففي قوله: (وفيهم خباء المكرمات المطنّب) كناية عن نسبة المكرمات الى بني هاشم عندما جعلها في خيامهم، وكقول البحتري (الكامل):

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثمّ لم يتحول

ففي قوله (المجد ألقى رحله في آل طلحة) كناية عن نسبة، إذ جعل المجد يحطّ رحاله في ديار آل طلحة، فنسب المجد إليهم، وكقول زياد الأعجم (الكامل):

إنّ المروءة والسّماحة والنّدى في قبّة ضربت على ابن الحشرج

ناسبا المروءة والسماحة والندى الى ابن الحشرج، عندما جعلها في قبتّه.

٤ . الكناية باعتبار الوسائط (اللوازم) والسياق:

تنقسم الكناية أيضا باعتبار الوسائط (اللوازم) والسياق الى أربعة أقسام هي:

٤ . أ. التعري:

هو نوع لطيف من الكناية يطلق فيه الكلام مشارا به إلى معنى آخر يفهم من السياق أو المقام الذي يتحدث فيه، مثاله: قولك أمام البخيل: ما أقبح البخل! معرّضا به، وكقولك أمام المتكبّر: ما أجمل التواضع! معرّضا به، ومن ذلك قول المتنبي معرّضا بسيف الدولة وهو يمدح كافور (الطويل):

إذا الجود لم يرزق خلاصا من الأذى فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا

ومنه أيضا قول الحجّاج معرّضا بمن تقدّمه من الأمراء في ولاية العراق (الرجّز):

لست براعي إبل ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وضم

ولهذا قيل: لا يحسن التعريض إلّا ثلبا (ذما)، وهو أخفى من الكناية.

٤ . ب. التلويح:

هو كناية تكثر فيها الوسائط بلا تعريض، فيكون الفضاء الفاصل بين المعنى المكني عنه والمعنى الحرفي كبيرا، وسمّيت بالتلويح لأنها تقوم على الإشارة من بعيد، ويتميز التلويح بأمرين:

. بعد ما بين المعنى الحرفي والمعنى المقصود لكثرة الوسائط.

. قرب في الفهم لوضوح العلاقات وسهولة العبور من واسطة إلى أخرى ومن النص الحرفي إلى المعنى المكني عنه.

مثاله: قول الشاعر (الوافر):

وما يك فيّ من عيب فإنّي جبان الكلب، مهزول الفصيل

المراد بقوله: جبان الكلب كناية عن كرم الرجل بأسلوب التلويح، لأن جبن الكلب ناجم عن دوام منعه عن الهرير في وجه القادمين، ودوام منعه معناه دوام تأديبه وزجره، ودوام تأديبه ناجم عن كثرة القادمين الى دار صاحبه، وكثرة القادمين ناجمة عن كونه سيدا كريما إذ لا يزدحم الناس إلّا على أبواب

الكرام، وفي قول الشاعر: مهزول الفصيل كناية عن كرم الرجل بأسلوب التلويح، وقد توصّلنا إلى صفة الكرم عبر الوسائط الآتية:

–الفصيل ولد الناقة ولا يكون هزيلا إلّا اذا لم تتح له فرص الرّضاع من أطباء (أثداء) أمه الناقة.

–وأمه لا ترضعه بسبب غيابها عنه غيابا أبديا.

وغيابها الأبدي ناجم عن كون صاحبها قد نحرها لضيوفه لأنّ لحمها طريّ وشهيّ فيه لذّة للآكلين.

٤ . ج. الإيماء أو الإشارة:

وهي كناية تتوسط بين التلويح والرمز بقلة الوسائط فيها وبوضوح نسبي في العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المراد، وتتميّز بأنها قليلة الوسائط، فتدلّ على المعنى المراد دلالة مباشرة كأنها تومئ إليه، مثالها قول أبي تمام في وصف الإبل (الوافر):

أبين فما يزرن سوى كريم وحسبك أن يزرن أبا سعيد.

فإنّه في إفادة أن أبا سعيد كريم لا يخفى كرمه على أحد.

٤ . د. الرّمز:

هو كناية قليلة الوسائط، خفيّة اللوازم أو الكناية القائمة على مسافة قريبة فيكون فيها الخفاء نسبيا كأن نقول: عريض الوسادة كناية عن أنّه أبله، ومنه قول الشاعر (الكامل):

رمزت إليّ مخافة من بعلها من غير ان تبدي هناك كلامها.

فلقد أشار الشاعر الى حبيبة له على سبيل الخفية، ومن أمثلته: وصف البليد بأنه عريض الوسادة، فعرض الوسادة يستلزم كبرا في الرأس وطولا في العنق وهذان الطولان من مستلزمات البلاهة عند العرب، ومنه أيضا: وصف القاسي بأنّه غليظ الكبد.

٥ . أهمية الكناية وجمالياتها:

الغرض من الكناية المبالغة والبعد عن المباشرة، والمبالغة في الصفة أو الصفات سبيل الى تثبيتها في نفوس المتلقّين، لذلك كانت الكناية عند الجاحظ أبلغ من التصريح، وهي أبلغ من الإفصاح عند عبد القاهر، فللكناية قيمة إبلاغية تقدّمها اللمحة الدالّة، فالشاعر والمبدع عندما يغطّيان المعنى الحقيقي بهذا الستار الشفّاف، يدعوان المتلقّي إلى اكتشاف هذا المعنى المتواري وراء المعنى المجازي، فيشعر بلذّة الكشف عنه وتفكيك عناصره والتدّرج في رصفها تمهيدا للوصول الى المعنى المقصود، فهناك حركة نفسية دائمة عند المتلقّي يستحضرها الخيال من تجاربه الخاصة، ومن ثقافته وعادات مجتمعه ليصل الى المعنى المراد فيتقرّر المعنى ويتأكّد، والمهمّ في الكناية كمية الصور الذهنيّة التي يستحضرها المتلقّي تباعا كأنّها ومضات تتكثّف وتتراكم لتشكل في النهاية معنى ثابتا يطمئن إليه العقل، ويتأثر به القلب، والكناية مظهر بلاغي راق لأنّها تقدّم الحقيقة مشفوعة بالأدلّة، والمعقول متلبسا ثوب المحسوس، والكنايات تعبير عن الحياة الاجتماعية بأحاديث يومية راقية معبّرة عن ثقافة المجتمع وذوقه، مثال ذلك هذه الكنايات:

. ألقى عصاه: كناية عن الإقامة وترك الترحّل.

. يحمل غصن الزيتون: كناية عن دعوته للسّلام.

. عضّ أصابعه: كناية عن النّدم.

. يمشي على شوك: كناية عن البطء والتثاقل في المشي.

. قلع أسنانه: كناية عن الحنكة ووفرة التجارب.

. بابه مفتوح: كناية عن حسن الاستقبال والكرم ودماثة الخلق.

. ذمّته واسعة: كناية عن تعطيل ضميره وإباحته المحرّمات وأكل الرزق الحرام.

. كأنّ على رؤوسهم الطّير: كناية عن الهدوء والصّمت والإصغاء بدقّة.

ومن مميّزات أسلوب الكناية عند الجرجاني أنّه لا يدلّ على المعنى مباشرة ولكنّه ينقل المتلقّي من طريق الدلالات ليصل الى المعنى المقصود من وراء ظلال التركيب، وهذا الذي سمّاه معنى المعنى، من هنا كان الكلام على كناية قريبة وأخرى بعيدة ، وعلى كناية جليّة وأخرى خفيّة، ولكنّ هذه الوسائط سبب من أسباب قوّة المعنى وفخامته.

تمارين:

١ . بيّن أنواع الكنايات الآتية وعيّن لازم معنى كل منها.

قال الشاعر:

فمسّاهم وبسطهم حرير وصبّحهم وبسطهم تراب
ومن في كفّه منهم قناة كمن في كفّه منهم خضاب

وأيضًا:

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

وأيضًا:

ولمّا شربناها ودبّ دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفي

وأيضًا:

فما جازه جود ولا حلّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

وأيضًا:

تجول خلاخيل النّساء ولا أرى لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

وأيضًا:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

وأيضًا:

مطبخ داود في نظافته أشبه شيء بعرش بلقيس
ثياب طبّاخه إذ اتّسخت أنقى بياضا من القراطيس

وأيضًا:

فليت قلوصي عند عزّة قيّدت بحبل ضعيف غرّ منها فضلّت

وأيضًا:

والقيت لمّا أن أتيتك زائرا عليّ لحافا سابغ الطول والعرض

وأيضًا:

رأيت ابن أمّ الموت لو أن بأسه فشا بين أهل الأرض لا نقطع النّسل

وأيضًا:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومناولكن على أقدامنا تقطر الدّما

وأيضًا:

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

وأيضًا:

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد

وأيضًا:

سليل النار (السيف) دقّ ورقّ حتّى كأنّ أباه أورثه السلالا

****

المبحث الخامس
المجـــاز

المجـــــاز

١ ـ تعريف

أ ـ لغة:

جاء في اللسان (جوز): «جزت الطريق، وجاز الموضع جوزا وجوازا ومجازا: سار فيه وسلكه...وجاوزت الشيء الى غيره وتجاوزته بمعنى أي أجزته...وتجاوز عن الشيء: أغضى، وتجاوز فيه أفرط»، فالمجاز لغة يعني إذا السيّر والتجاوز والتسامح والتخطّي، لأنّ اللسان أورد معنى العفو والتسامح عند ما أورد المعنى الديني للفظ: «تجاوز الله عنه أي عفا»، وفي المعجم الوسيط «المجاز: المعبر، ومن الكلام: ما تجاوز ما وضع له من المعنى» فهل نلمح في المعبر معنى التغيير؟ وهل يكون الانتقال من مكان الى آخر كانتقال اللفظ من معنى الى آخر؟ فيدخل اللفظ توسّع في الدلالة أو انزياح دلالي.

ب ـ اصطلاحا:

جاء في معجم المصطلحات «المجاز: كل الصيّغ البلاغية التي تحتوي تغييرا في دلالة الألفاظ المعتادة، ويندرج تحت هذا كل أنواع المجاز في البلاغة العربية ما عدا الكناية التي لا يمنع استعمال ألفاظها في غير ما وضعت له من إرادة المعنى الأصلي لهذه الألفاظ»، وفي تعريفات الشريف الجرجاني «هو اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما كتسمية

الشجاع أسدا» واضح أن الجرجاني يتحدّث عن انزياح دلالي شرط وجود مناسبة بين الدلالة الأولى والدلالة الثانية.

ج . تعريف البلاغيين:

عرّفه الجرجاني بقوله: «المجاز كلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول»، يفهم من هذا التعريف ان المجاز مختصّ بالكلمة المفردة في حين وسّع معجم المصطلحات دائرته ليشمل الصّيغ أيضا، ثم وسّع عبد القاهر تعريفه بقوله: «وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع الى ما لم توضع له من غير أن تستأنف منها وضعا للملاحظة بين ما تجوز بها اليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها»، فالتوسّع في الشرح والتعريف أبقى المجاز محصورا في الكلمة المفردة ولم يتناول الصيغ كما في معجم المصطلحات، أما الخطيب القزويني فرأى ان المجاز يكون في المفرد وفي المركّب، وهو عنده «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصحّ مع قرينة عدم إرادته ، فلا بدّ من العلاقة ليخرج الغلط والكناية» فاذا كان الخطيب القزويني قد تكلم هنا على المجاز المفرد، فانه تكلم في مكان آخر على المجاز المركب الذي يعني«اللفظ المركّب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه»، وهكذا نصل الى تعريف جامع للمجاز يوسّع دلالته ليشمل المفرد والمركّب، وهذا التوسّع يعبّر عن حقيقة الدلالة البلاغية للمجاز، ونستخلص من هذه التعريفات شروط المجاز الآتية:

١. وجوب توافر علاقة تسوّغ نقل اللفظ من معناه الحقيقي إلى معناه غير الحقيقي.

٢. إمكانية قيام هذه العلاقة على المشابهة أو على غير المشابهة.

٣. وجوب توافر قرينة لفظية أو معنوية تساعد على تمييز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي المقصود.

٢. غايات المجاز وفوائده:

من أهم الغايات التي يحققها المجاز ما يأتي:

١. التوسّع:

للألفاظ معان حقيقية سمّاها الدلاليون المعاني الأصلية للألفاظ وتنحصر هذه المعاني بالدلالة القاموسية للفظ ، وهذه المعاني القاموسية ثابتة وموحّدة، لكن الدّلاليين تكلموا أيضا على المعاني الاضافية للفظ، والمعنى الإضافي في نظرهم معنى خاص غير موحّد مرتبط بثقافة المبدع أوّلا وبالصور الجديدة والمعاني الجديدة التي يتجاوز فيها المبدع الموروث اللغوي والتعبيري، إنّه ضرب من الإبداع في العلاقات القائمة بين الألفاظ يتوسّع فيه يمنة ويسرة ليعطي للمعنى القاموسي للألفاظ معاني إضافية يساعده في انتاجها التخييل، من هنا كان الكلام على توسيع الدلالة التي لا تتحدّد بشكل دقيق الّا اذا رصفت الألفاظ في عبارة أو في سياق، فقوله: له عليّ يد، لا ينظر فيه إلى معنى اليد الحقيقي بل ينظر إلى المعنى الإضافي للفظ وهو الجميل أو المساعدة مادية كانت أو معنوية، والتوسّع أتى من كون العطاء أصلا أداته إلي، فتوسّع المبدعون في دلالة الجملة، حتى صارت بمعنى المساعدة والفضل.

٢. التوكيد

من الغايات التي يحققها المجاز التوكيد لأنه وسيلة من وسائل ترسيخ المعنى بشكل غير مباشر يتطلّب من المتلقّي تخييلا معينا يصبح فيه المعنى أبلغ مّما كان عليه في الحقيقة.

٣. التشبيه

وهو بارز جدا في المجاز، فعندما نقول: جاء القمر معبّرين بذلك عن وصول فتاة جميلة، نكون قد شبّهنا الفتاة بالقمر وأضفنا الى هذه الفتاة اسما جديدا لما بينها وبين القمر من شبه مع وجود قرينة مانعة من ايراد المعنى الحقيقي، وهكذا يكون:

طلع القمر (على الحقيقة) خاليا من التشبيه، أما جاء القمر (على المجاز) فهو متضمن تشبيه الفتاة الجميلة بالقمر، ففي المجاز اذا ابتكار معنى جديد للفظ قد يكون معنى فرديا يكسب صاحبه صفة التّميّز والفرادة ، وقد يكون معنى عاما، كما في المثال السابق يكسب صاحبه صفة المقلّد، فتتراجع عنه صفة الابتكار والاختراع، والملاحظ أن التوسع الدلالي أو الانزياح الدلالي عملية واعية قائمة على رصد الصلات المشتركة بين المعنى الاصلي والمعنى المجازي .. فإذا عدنا الى المثال السابق (جاء القمر) لاحظنا ان العلاقة القائمة بين القمر والوجه الجميل لا تحتاج الى تعليل وتفسير.

****

الحقيقة

١ . تعريفها:

أ . لغة:

جاء في اللسان (حقق): «والحقيقة ما يصير إليه حقّ الأمر ووجوبه. وبلغ حقيقة الأمر أي يقين شأنه...والحقيقة في اللغة: ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ما كان بضدّ ذلك»، فالحقيقة تعني إذا المعنى الأصلي المتعارف عليه في المعجمات وفي أصل الاستعمال، والمجاز موجّه نحو المعاني الإضافية للفظ التي يغلب عليها طابع الجدّة والابتكار والخصوصية.

وقد ذكر الخطيب القزويني تعريفا لغويا آخر مفاده: «والحقيقة إما فعيل بمعنى مفعول، من قولك: حققت الشيء أحقه، إذا أثبتّه، أو فعيل بمعنى فاعل من قولك: حقّ الشيء يحق اذا ثبت، أي المثبّتة أو الثابتة في موضعها الأصلي».

ب. اصطلاحا:

جاء في كتاب التعريفات: «الحقيقة : كل لفظ يبقى على موضوعه ، وقيل : ما اصطلح الناس على التخاطب [به]»، إنها المعنى الحقيقي للفظ المبرّأ من كلّ المعاني الإضافية، ويتضح معناها أكثر في تعريف المحدثين الذي جاء فيه: «هي مدلول الكلمة المستعملة فيما وضعت له بحيث تدلّ على معناها بنفسها من غير حاجة الى علاقة أو قرينة، وذلك كاستعمال القمر للكوكب المعروف لا للوجه المشرق مثلا»، وعرّفها الخطيب القزوينيبقوله: «هي الكلمة المستعملة في ما وضعت له في اصطلاح التخاطب»، مثال توضيحي للحقيقة والمجاز:

قال المتنبّي وقد نظر الى السّحاب (الوافر):

تعرض لي السّحاب وقد قفلنا فقلت اليك إنّ معي السحابا
فشم في القبّة الملك المرجّي فأمسك بعدما عزم انسكابا

قال العكبري في شرح هذين البيتين: «يريد أن السحاب أمسك عن الانسكاب لئلا يخجل من وجوده لتقصيره عنه»، لقد ورد لفظ السّحاب مرتين في البيت الأول، وهو مستخدم بمعناه الحقيقي في الصدر، وبمعناه المجازي في العجز لأنّ المقصود به الممدوح الكريم، وهذا مجاز لأن اللفظ استخدم في غير ما وضع له في الاصطلاح، والقرينة تكمن في المشابهة، إذ السحاب يجود بالمطر والكريم يجود بالمال، وفي أحاديث الناس اليومية ما يشبه ذلك، لهذا نفى بعض البلاغيين وجود مجاز في القرآن الكريم، وردّ عليهم ابن قتيبة بقوله: «إنّ المجاز شائع في كلام العرب، ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب الى غير الحيوان باطلا لكان أكثر كلامنا فاسدا».

والواقع أن الزمخشري ألّف معجم أساس البلاغة وذكر فيه المعنى اللغوي بايجاز كليّ، وفصّل الكلام على المعاني المجازية حتى عدّ المعجم معجم المعاني المجازية، وهو معجم لم يسبق إلى مثله، وهذا رسم بياني يختصر ما تقدم من كلام على الحقيقة والمجاز ويوضّح أنواع المجاز التي سوف نتناولها بالتفصيل.

المجاز المرسل وعلاقاته

عرّفنا سابقا المجاز لغة واصطلاحا ونبحث الآن عن تعريف البلاغيين للمجاز المرسل.

١ . تعريفه:

جاء في الإيضاح «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه، كاليد إذا استعملت في النّعمة، لأنّ من شأنها أن تصدر عن الجارحة، ومنها تصل الى المقصود بها، ويشترط أن يكون في الكلام إشارة الى المولي لها، فلا يقال: اتّسعت اليد في البلد، أو اقتنيت

يدا، كما يقال: اتّسعت النعمة في البلد أو: اقتنيت نعمة، وإنّما يقال: جلّت يده عندي، وكثرت أياديه لديّ ونحو ذلك»، ويقود كلام القزويني الى استنتاج مفاده أنّ في المجاز علاقة بين أمرين، أو مجموعة من العلاقات، فإذا انحصرت هذه العلاقة في التشبيه كان المجاز ضربا من الاستعارة، وإذا لم تكن العلاقة مقيّدة بالتشبيه بل أرسلت لتشمل أنواعا كثيرة من العلاقات كان المجاز مرسلا، وإذا كان تعريف القدامى مشوبا بالغموض أو اللّبس فإن للمحدثين تعريفات أكثر وضوحا وشمولية. نذكر من هذه التعريفات ما يأتي:
هو كلمة استعملت في غير معناها الأصلي، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة لفظية أو حالية مانعة من إرادة المعنى الأصلي، وجاء في تعريف آخر «إنّه مجاز لغوي يرتبط فيه المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي بعلاقة غير المشابهة، وسمّي بالمرسل، لأنّه غير مقيّد بعلاقة المشابهة، إذ إنّ الإرسال في اللغة الاطلاق، والمجاز الاستعاري مقيّد بادّعاء أن المشبّه من جنس المشبّه به والمجاز المرسل مطلق على هذا القيد، وقيل: إنما سمّي مرسلا لأنه لم يقيّد بعلاقة مخصوصة بل ردّد بين علاقات كثيرة».

لشرح تعريف القزويني شرحا عصريا من خلال المثال الذي جاء في التعريف وهو اليد إذا استعملت في النعمة، قيل: جلّت يده عندي، وكثرت أياديه لديّ، لم يجىء في المثل كثرت نعمه لدي بل حلّ لفظ أياديه محلّ نعمه، والذي سهّل على القائل قوله هذا وجود علاقة منطقيّة بين المعنيين، فالشاعر اختزل المسافة القائمة بين اليد والنعمة، فاليد الجارحة هي التي تحدث الإحسان، فالمحسن صاحب النعم يهب النعم بوساطة يده فيحدث الجميل أو الإحسان لهذا ترسّخت العلاقة بين اليد والإنعام، وبالتكرار والتلازم ازدادت العلاقة بين اليد والنعمة وغاب الأعيان (المحسن والمحسن اليه ونوع العطاء)، فاليد آلة العطاء والمال سبب في النعمة إذ اليد سبب في النعمة، فاختزلت مرحلة من مراحل تطوّر المعنى، وبذلك تحوّلت اليد من معنى

الجارحة الى معنى النعمة، والذي سهّل عمليّة التحوّل هذه العلاقة السببية بين المعنيين، لهذا قال أحدهم: «ففي المجاز المرسل يعبر اللفظ من مدلوله الأصلي الى مدلوله المجازي عن طريق صلة تجمع بينهما يبصرها الذهن فيهتدي بها الى تحليل الخطاب التحليل المقبول».

العلاقات في المجاز المرسل.

تحدّث البلاغيون بإسهاب عن هذه العلاقة غير المشابهة فذكروا عددا غير قليل فاق العشرين علاقة، وقد اكتفى الخطيب القزويني بذكر تسع منها، وهي في الواقع كافية تغني عن ذكر العلاقات الهامشية الأخرى، تتمحور هذه العلاقة حول أربعة محاور ينضوي تحت كلّ منها عدد من العلاقات، وهي:

١ . العلاقة الغائيّة: وينضوي تحتها:

أ. السببّية (استعمال السّبب للدلالة على النتيجة).

ب. المسبّبية (استعمال النتيجة للدلالة على السّبب).

ج. الآلية.

د. الملزومية (إطلاق اسم الملزوم على اللازم).

هـ. اللازمية.

٢ . العلاقة الكمّية: وينضوي تحتها:

أ. الكلّية.

ب. الجزئية.

ج. العمومية (إطلاق الاسم العام وإرادة الخاص).

د. الخصوصية (استعمال اللفظ الخاص للدلالة على العموم).

٣ . العلاقة المكانيّة: وينضوي تحتها:

أ. المحلّية (استعمال الحاوي للدّلالة على المحتوى).

ب. الحاليّة.

ج. المجاورة.

٤ . العلاقة الزمانية: وينضوي تحتها:

أ. الماضوّية (اعتبار ما كان).

ب. المستقبليّة (اعتبار ما سيكون).

وسنفصّل القول في هذه العلاقات وفق هذه التّصنيفات.

العلاقة الغائيَّة

١ . أ. السّببّية:

يجري هنا استعمال اللفظ الدال على السبب وتراد به نتيجته فنذكر السّبب، ونحن نريد المسبّب، نحو: ما زلنا نطأ الغيث حتى أتيناكم، لقد قلنا الغيث ونحن نريد العشب المسبّب عن الغيث، ففي هذا القول مجاز مرسل لأننا ذكرنا السّبب (الغيث)، وأردنا المسبّب (العشب) فالعلاقة سببّية والقرينة (نطأ) والارتباط بين الغيث والعشب خارجي لأن لكل منهما حقلا دلاليا مستقلّا.

ومثالها أيضا قوله تعالى (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ) آل عمران: ٥٤. فالمراد من (وَمَكَرَ اللهُ) وعاقبهم الله على مكرهم، ففي مكر مجاز مرسل ذكر السبب (المكر) وأراد ما يتسبّب عنه من عقوبة فالعلاقة سببّية، ومثالها أيضا قول عمرو بن كلثوم (الوافر):

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ذكر الشاعر الجاهلي (الجهل) وهو يريد ما يتسبّب عنه من عذاب وعقاب. فكان المجاز مرسلا، ومثله قول السموءل (الطويل):

تسيل على حدّ الظّبات نفوسنا وليس على غير الظّبات تسيل

فالذي يسيل على حدّ الظّبات هو الدماء لا النفوس، ولكن لمّا كان وجود النّفس في الجسد سببا في وجود الدم فيه استطاع الشاعر إحلال كلمة النفوس محل الدماء لأن النفس سبب لوجود الدم، فالعلاقة بين النفوس والدّماء سببّية والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي للنفوس مذكورة (على حدّ الظبات) فالنفس الحقيقية لا تسيل على حدّ الظبات، وقد قسم البلاغيون علاقة السببّية أقساما، هي:

أ. السببيّة القابلية، أي تسمية الشيء باسم قابله، نحو: سال الوادي، أي الماء.

ب. السببيّة الصورية، نحو تسمية اليد بالقدرة، لأنّ القدرة صورة اليد لحلولها منها حلول الصورة في المادّة.

ج. السببيّة الفاعليّة، نحو: نزل السّحاب، أي المطر بإطلاق اسم فاعل الشيء على الشيء، فالمطر يصدر عن السّحاب.

د. السببيّة الغائية، نحو: شرب عنبا، والمقصود شرب خمرا لأن الخمر غاية العنب.

وقد خالف الأصوليون هذه التسميات الأربع لأسباب عقليّة حملتهم على تعليلات تخالف تعليلات البلاغيين.

١ . ب. المسبّبيّة:

يرد اللفظ الدال على المسبب ويراد به سببه، وتذكر فيها النتيجة أو المسبّب ونحن نريد السبب الذي أدّى إليه، نحو: أمطرت السّماء ذهبا، فالقائل يريد المطر وهو سبب اكتساب الرّزق، فالذّهب مسبّب عن المطر، والقائل استغنى بذكر المسبّب عن ذكر السبب، ولهذا كان في كلامه مجاز مرسل علاقته مسبّبية والقرينة: أمطرت السماء، ومثالها أيضا قوله تعالى: (إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً) النساء: ١٠، والآية في آكلي أموال اليتامى، ووردت النار لأن مآل آكلي أموال اليتامى الى النار وهي المسبّبية عن أكلهم

هذه الأموال، فذكرت المسبّب (النار) وأرادت السّبب (أموال اليتامى المأكولة) ففي الآية مجاز مرسل علاقته تبعا لما ذكر المسبّبية لأنّ الإنسان لا يأكل نارا، لكنّه يأكل الطعام الحرام الذي يسبّب لصاحبه النار، فالنار مسبّبة عن أكل الحرام، ومثالها قول للشاعر يصف غيثا:

أقبل في المستنّ من ربابه أسنمة الآبال في سحابه.

(المستن: الواضح، الرّباب: السّحاب الأبيض، الآبال: جمع إبل، أسنمة: ج سنام)، فهذا الغيث هو سبب نماء أسنمة الإبل، وهكذا يكون الشاعر قد ذكر المسبّب وهو يريد السبب، فالرّباب سبب، ونماء الأسنمة مسبّب عنه.

١ . ج. الآلية:

يرد فيها اللفظ الدال على الآلة أو الأداة ويراد به: أثرها، ويقتصر فيها على ذكر الآلة التي يؤدى بها الفعل بدلا من ذكر الفعل نفسه، فالآلة في الأصل هي السّبب المؤدي الى ذلك الفعل، نحو: ضربته عصا، والمراد ضربته بالعصا، ففي (عصا) مجاز مرسل لأنّه استغنى بذكر آلة الضرب عن ذكر فعل الضرب نفسه، فالعلاقة آلية والقرينة ضربته، ومثالها قوله تعالى: (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ) ابراهيم: ٤، والآية استخدمت (اللسان) والمراد به اللغة. والمعلوم أن اللسان آلة تؤدى بها اللغة، لذلك كان في الآية مجاز مرسل إذ ذكر الآلة (اللسان) وأراد اللغة التي تؤدي به، فالعلاقة آلية، والقرينة حالية، ومثالها ايضا قول الشاعر (الطويل):

وما من يد إلّا يد الله فوقها وما ظالم إلّا سيبلى بأظلم.

أراد الشاعر بيد (القوة) وصار معنى كلامه: ما من قوّة إلا قوّة الله فوقها لكن المعلوم عند الناس أن اليد هي آلة القوّة، لذلك كان في البيت مجاز مرسل إذ ذكر الآلة (اليد) وأراد القوّة التي تؤدى بها، فالعلاقة آلية والقرينة حالية، ومثاله قول المتنبي في كافور (البسيط):

جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللّسان فلا كانوا ولا الجود.

ذكر المتنبي اليد واللسان مريدا بهما: المال والقول، فاستعاض بذكر الآلة عمّا تحدثه، لقد أقام المتنبي مقابلة بين الجود الحقيقي والجود المزيّف، فالأصل أن يأمر اللسان بإعطاء المال واليد تحوّل ذلك الأمر إلى حقيقة فيكون ها هنا بينهما تتابع واتساق، اللسان . أمر بالجود . اليد . إعطاء المال.

لكنّ المتنبي لمس الخلل في هذه السلسلة عند كافور فقارن بين الشكل الأصلي التام في الجود والشكل الأبتر عند كافور فأخرج الصورة في تركيب يقوم على مجاز مرسل ومقابلة يتوسّطها لفظ (جود) بل يبدأ به البيت وينتهي به ولكن بدايته إيجاب ونهايته سلب.

١ . د. الملزومية (إطلاق اسم الملزوم على اللازم):

مثال ذلك: دخلت الشّمس من النافذة والمقصود نورها لا جرمها، فكلمة الشمس مجاز مرسل علاقته الملزومية، لأنّ المعنى الحقيقي للشمس هو جرمها وجرمها ملزوم للمعنى المجازي الذي هو الضوء، والقرينة (دخلت)، ومنها أيضا قوله عليه الصلاة والسّلام (لا تسبّوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا)، فالذي قدّموه هو اعمالهم وأقوالهم التي يترتّب عليها جزاؤهم وعقابهم، والجزاء والعقاب من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

١ . هـ. اللازمية:

وهي كون الشيء يلزم وجوده عند وجود شيء آخر، أي حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة لازما للمعنى المجازي، مثال ذلك: أنظر الحرارة ونحن نشير إلى النّار، وطلع الضّوء ونحن نقصد الشمس والقرينة في ذلك: انظر وطلع، والحرارة لازمة للنّار إذ لا نار بلا حرارة، والضوء لازم للشمس فهي أمّ الأضواء، والنظر ليس وصفا حقيقيا للحرارة بل النّار والطلوع ليس وصفا حقيقيا للضوء بل للشمس، ننتهي الآن من العلاقات الغائية وننتقل الى العلاقات الكميّة.

العلاقة الكميّة:

وتتضمن العلاقات الفرعية الآتية:

٢ ـ أ. الكلّية:

يرد اللفظ الدال على الكل ويراد به الجزء، ويستعمل فيها اللفظ الدّال على الكل ويراد جزء منه. وهي تقابل الجزئية، فنذكر الكلّ ونحن نريد جزءا منه، مثالها قوله تعالى: (وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ) نوح: ٧، لقد ذكرت الآية (أَصابِعَهُمْ) ولكن من الطبيعي ألّا يكون بقدرتهم وضع أصابعهم كلها في آذانهم، بل الطبيعي أن يضعوا أطراف أصابعهم في آذانهم، ففي الآية إذا مجاز مرسل إذ ذكر الكل (الأصابع) وأريد به الجزء (أطرافها) والعلاقة كليّة، ومثالها أيضا قوله تعالى: (يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) آل عمران: ١٦٧، ذكرت الآية (أفواههم) والمراد ألسنتهم لأن اللسان آلة القول ولكنّ اللسان جزء من الفم، لذلك كان في الآية مجاز مرسل إذ ذكر الكل (الفم) والمراد به الجزء (اللسان) فالعلاقة كلية، ومثالها أيضا قول المتنبي:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخبّ بي الرّكاب ولا أمامي

فمن الطبيعي أن الشاعر لم يقم في أرض مصر بكاملها بل هو أقام في جزء منها، فلقد ذكر الكل وأراد الجزء. فالعلاقة إذا كليّة.

٢ ـ ب. الجزئية:

يرد اللفظ الدال على الجزء ويراد به الكلّ، وفيها نذكر الجزء ويراد الكلّ، نحو قوله تعالى: (فَكُّ رَقَبَةٍ) البلد: ١٣، فالآية أتت على تحرير الرّقيق وعنت بفك رقبة تحرير العبد، فالرقبة جزء من العبد، والآية أرادت العبد كله لا رقبته وحدها، لذلك كان في الآية مجاز مرسل علاقته الجزئية والقرينة حالية، وكقول الكميت (الطويل):

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطرّبني بنان مخضّب

فالشاعر ذكر البنان وأراد به الحبيبة صاحبة البنان، فالبنان المخضّب جزء من الفتاة والشاعر أراد الفتاة كلّها لا إصبعها وحده، لذلك كان في شعره مجاز مرسل علاقته الجزئية، ومثالها أيضا قول الشاعر (الوافر):

وكم علّمته نظم القوافي فلمّا قال قافية هجاني.

لقد ذكر الشاعر (قافية) مرادا بها قصيدة، ولكن القافية جزء من القصيدة لذلك كان في البيت مجاز مرسل علاقته الجزئية، ومنها: بثّ الحاكم عيونه في المدينة، أراد بثّ جواسيسه، فالعيون جزء من الجواسيس وكان الانتقال من الجزء الى الكلّ.

٢ . ج. العمومية: (إطلاق الاسم العام وإرادة الخاصّ).

وهي استعمال اللفظ الدّال على العموم لشيء يكون من مشتملاته، نحو (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ) الشعراء: ٢٢٤، فالآية لم تعن عموم الشعراء لأنّه جاء بعدها استثناء لبعضهم (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) الشعراء: ٢٢٧.

٢ . د. الخصوصية: (استعمال اللفظ الخاص للدلالة على العموم).

من ذلك قوله تعالى (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) المنافقون: ٤، استخدمت الآية لفظ العدوّ وأرادت الأعداء بدليل ضمير الجماعة العائد إليه في (فاحذرهم)، ومن ذلك أيضا قوله تعالى (عَلِمَتْ نَفْسٌ) التكوير: ١٤، والمقصود كلّ نفس، وهكذا تنتهي العلاقة الكمّية وتفرعّاتها الجزئية ونبدأ بالعلاقة المكانية وتفرّعاتها.

العلاقة المكانيّة:

وتنضوي تحتها العلاقات الفرعيّة الآتية:

٣ . أ. المحلّية:

يرد اللفظ الدال على المحلّ ويراد ما حلّ به، وفيها يذكر المحلّ ويراد ما يحلّ به، نحو: ركبت البحر، فأنت لم تركب البحر وإنما ركبت السفينة

التي تمخر عبابه، ففي البحر مجاز لأنني ذكرت المحلّ (البحر)، وأنا أريد الحالّ فيه (السفينة) والقرينة (ركبت) فالعلاقة محليّة، ومثالها قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً) الأنعام: ٦، فالآية تريد بالسّماء المطر، ولهذا فقد ذكرت المحلّ الذي يأتي منه المطر (السماء) وأرادت المطر نفسه فالعلاقة إذا محلية، وكقول ابن لنكك في هجاء المتنبّي (البسيط):

لكنّ بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقّاء تزدحم

فلقد ذكر الشاعر بغداد، وأراد أهلها الذين يحلّون فيها، ولقد أورد لفظ نعالهم دلالة على ذلك، ففي البيت مجاز مرسل لأنه ذكر المحل (بغداد) وهو يريد الحالّين فيه (أهل بغداد) والقرينة نعالهم، فالعلاقة إذا محلية، ومثالها أيضا قول عنترة (الكامل):

فشككت بالرمح الأصمّ ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

فلقد ذكر ثيابه وهو يريد جسمه، ولكنّ الجسم يحلّ في الثيّاب، ففي البيت مجاز مرسل لأنه ذكر المحل (الثياب) وهو يريد الحالّ فيه الجسم والقرينة شككت، فالعلاقة إذا محليّة.

٣ . ب. الحالّيّة:

يرد اللفظ الدال على الحالّ ويراد به المحلّ، وتقابل المحليّة ، فنذكر فيها الحالّ بدلا من المحلّ الذي حلّ فيه، مثالها قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) آل عمران: ١٠٧، والمقصود ب (رَحْمَتِ اللهِ) جنّة الله، والجنّة هي المحلّ الذي تحلّ فيه رحمة الله، ففي الآية مجاز مرسل، إذ ذكرت الآية الحالّ (الرحمة) وأرادت المحلّ (الجنّة) بقرينة (هُمْ فِيها خالِدُونَ) والعلاقة حاليّة، ومثالها أيضا قول الشاعر (الطويل):

ألماّ على معن وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا.

(مربعا ثم مربعا: اربعة أيام ثم أربعة أخرى وهكذا ...)، لقد ذكر الشاعر (معنا) والمقصود (قبر معن) فمعن هو الحالّ فيه، ففي البيت مجاز مرسل إذ ذكر الحالّ (معن) وأراد المحلّ (القبر) بقرينة وقولا لقبره. والعلاقة حاليّة، ومثالها أيضا قول المتنبي في هجاء كافور (البسيط):

إنّي نزلت بكذّابين، ضيفهم عن القرى وعن التّرحال محدود

لقد ذكر الشاعر (الكذّابين) وقصد أرض الكذّابين لأنّ الكذّابين يحلّون في هذه الأرض، ففي البيت مجاز مرسل إذ ذكر الحالّين (الكذّابين)، وأراد المحلّ (أرض الكذابين) بقرينة قوله (نزلت) والعلاقة حاليّة.

٣ . ج. المجاورة:

المقصود بالمجاورة التعبير بالمجاور عمّا جاوره، ويكون ذلك حين يكون المعنى الحقيقي للفظ المذكور مجاورا للمعنى المجازي، وقد أهمل البلاغيّون هذه العلاقة لأنه بالامكان الاستغناء عنها إما بعلاقة المحليّة ، وإما باللازميّة والملزوميّة، ننتقل الآن الى الضرب الأخير من العلاقات وهو العلاقة الزمانيّة.

العلاقة الزّمانية: وينضوي تحتها

٤ . أ. الماضويّة (اعتبار ما كان).

يرد اللفظ الدال على طور من الأطوار قد انقضى ويراد به طور سابق على ذلك الطور أو هو تسمية الشيء بما كان عليه، وتكون هذه الحالة عندما نستعمل كلمة تطلق على ما كان عليه الشيء، ونحن نقصد ما آل اليه بعد ذلك، مثالها قوله تعالى: (وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ) النساء: ٢، ففي كلمة يتامى مجاز مرسل لأنه ذكر ما كان، وهو يريد ما آل اليه اليتامى من بلوغهم سن الرشد، وهي السّنّ التي يفقدون فيها صفة اليتم والقصور فترد عليهم أموالهم، فكأن الآية تريد وآتوا الراشدين أموالهم والقرينة حالية والعلاقة اعتبار ما كان، ومثالها أيضا قوله تعالى (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ

جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى) طه: ٧٤، ففي كلمة (مجرما) مجاز مرسل لأن الآية ذكرت ما كان عليه في الدنيا من إجرام، والقرينة حالية، والعلاقة اعتبار ما كان، ومثالها قول ابن حمديس:

لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب

طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

ففي كلمة (طين) مجاز مرسل لأن أصل الانسان من طين، فأبو البشر آدم كان من تراب وطين، فالطين إذا رمز للانسان باعتبار ما كان عليه في الأصل، والعلاقة بين الانسان والطين علاقة تاريخ أو هي علاقة ماضوية، أما البيت الأول ففيه مجاز مرسل أيضا وعلاقته الكليّة إذ إن الركوب يكون في جزء من البحر، وقد تكون العلاقة فيه محليّة على أساس أن الركوب يكون في السفينة وهي حالّة في البحر الذي هو المحلّ.

٤ . ب. المستقبليّة (اعتبار ما سوف يكون).

يرد اللفظ الدال على طور من الأطوار التي يكون عليها شيء ما وإرادة طور لاحق، أو هو تسمية الشيء بما يكون، وتقابل العلاقة السابقة، إذ نذكر ما سوف يؤول إليه الشيء ونحن نقصد ما كان عليه، مثالها قوله تعالى: (قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً) يوسف: ٣٦، ففي كلمة (خمرا) مجاز مرسل والعلاقة مستقبلية، فالآية تريد ما كان عليه الخمر قبل العصر (العنب) وذكرت ما يكون عليه بعد العصر (الخمر) والقرينة (أعصر) فهنا مجاز مرسل علاقته مستقبلية أو اعتبار ما سيكون، ومثالها أيضا قوله تعالى: (فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ) الصافات: ١٠١، ففي كلمة (حليم) مجاز مرسل والعلاقة مستقبلية لأن الآية تريد ما سيكون عليه الغلام لا ما هو عليه الآن، والحلم صفة لا يكتسبها الإنسان إلّا بعد الإدراك ولا يوصف بها الغلام، ومثالها أيضا قول أحمد شوقي يصف التلامذة:

وتلك الأواعي بأيمانهم حقائب فيها الغد المختبي

لقد أراد شوقي أن حقائبهم فيها الكتب والدفاتر وعدّة الدراسة فذكر ما يكون منها (الغد) أي المستقبل ولم ينظر إلى ما هو كائن الآن والعلاقة مستقبلية لأنه اعتبر ما سيكون، في جمالية المجاز المرسل وأهميّته، ويؤدي المجاز المرسل دورا هاما في بلاغة التعبير لأنه يوسّع دلالته ويبعث على التامّل الذي يخلّص العبارة من المباشرة المملّة ويفتح المجال واسعا امام الخيال الذي يشكّل الصور التي يستسيغها ذوقه، إنّه يشحن الألفاظ بدلالات جديدة من غير إماتة للمعنى الحقيقي، وعند ما يبدو التعميم والشمولية في المجاز المرسل فإن ذلك يدلّ على مبالغة لطيفة وان الصورة تطوي وراءها احيانا مزيدا من الإحساس بالصورة المقصودة، وعندما نستبدل الكلّ بالجزء نحسّ بالمبالغة وعندما يلخّص الجزء الكلّ يتمّ تشخيص الكل بشكل متميّز عن الأشياء الأخرى.

لهذا فإن المجاز على علاقة بالرسم والتصوير، وهذان يتطلّبان استخدام نظام صارم مرتبط بالألوان والأشكال والأبعاد وكذلك المجاز المرسل ليس استخداما عشوائيا للألفاظ بل هو نظام عام مرتبط بالحياة والتراث، وإذا كان المجاز ركيزة الصورة فإنّه بذلك يحدّد بدقّة وجهة نظر المبدع للأشياء ويبلور رؤيته للكون.

وتكمن أهميته في أنّه يضفي على الصورة رونقا ويوسّع دائرة الإيحاء ويكمّل وظيفة اللغة من خلال الرؤيا الفنّية للأشياء، وهو يساعد على التركيز لفهم الحذف الحاصل في أوجه المجاز وعلاقاته، وإذا كان مستحبا فيه الغموض الفنّي فإن هذا الغموض لا يعني التعقيد والإلغاز، ففي المجاز المرسل يتشوّق القارئ الى تحصيل الصورة كاملة فيشعر بلذّة الاكتشاف بعد أن أعمل عقله وخياله في اكتشاف العلاقات القائمة بين ضروب المجاز، لهذا كان الشعر كشفا لما فيه من ألفاظ موحية بمعان قريبة وبعيدة تساعد القرائن اللفظية والمعنوية على اكتشافها.

تمرينات:

١ . أدرس المجاز المرسل في ما يأتي واشرحه مبينا علاقاته وأهمّيتها في بناء الصورة.

-قال تعالى: (قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً) الأعراف: ٢٦.

-(وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ) ابراهيم: ٤.

-(فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) الصافات: ١٤٣.

-(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) البقرة: ١٨٥.

-(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ) الأحزاب: ١.

-(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها) الأعراف: ١٧٩.

-(يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ) آل عمران: ١٦٧.

وقال الشاعر:

أكلت دما إن لم أرعك بضرّة بعيدة مهوى القرط طيّبة النشر

وأيضًا:

كم بعثنا الجيش جرّا را وأرسلنا العيونا

وأيضًا:

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه بعيد الكرى عيناه تنسكبان

وأيضًا:

وما من يد إلّا يد الله فوقها ولا ظالم إلّا سبيلي بأظلم

وأيضًا:

رأيتك محض الحلم في محض قدرة ولو شئت كان الحلم منك المهنّدا

****

ب ـ المجاز العقلي

١ . تعريفه:

«هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقة، مع وجود قرينة تمنع إرادة الإسناد الحقيقي»، والمقصود ب (ما في معناه): المصدر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبّهة واسم التفضيل...وهي مشتقات تعمل عمل الفعل.

٢ . بين المجاز المرسل والمجاز العقلي:

لا يكون المجاز العقلي إلّا في إسناد، أي: في ما كان فيه المعنى قائما على مسند ومسند إليه، وإن الأصل في تسميته عائدة إلى أن المجاز هنا ليس في اللفظ نفسه كالاستعارة والمجاز المرسل، بل في الإسناد، أي: في العلاقة بين المسند والمسند إليه، وهي تدرك بالعقل، أمثلة: الجاحظ كاتب شهير، جاء بغداد وهو في الخمسين، فقد أسندنا في هاتين الجملتين الكتابة إلى الجاحظ إسنادا حقيقيا؛ لأن الجاحظ نفسه هو الذي اتّصف بالكتابة أو هو القائم بها، كما أسندنا المجيء إلى بغداد إليه، وهو ايضا إسناد حقيقي للأسباب عينها، فلقد أسندنا في هاتين الجملتين الفعل الى فاعله الأصلي حسب الظاهر.

ويجري التجوّز في المجاز العقلي في الإسناد دون المعنى، فالألفاظ فيه تدلّ على ما وضعت له في اللغة، ولكن المتكلم يخرج بها عن الوجه المعهود في إجرائها في التركيب النحوي فيستأنف إجراء تركيبيا جديدا لها، وسمّي هذا المجاز مجازا عقليا لأنّه يقوم على تكسير رابط عقلي يجري به تأليف الكلام، فعندما نقول ذعر الذعر نكون قد أسندنا الذعر الى الذعر فالذعر يشارك الكائن الحي ذلك الفعل وهذا تجوّز من حيث المعقول لا من حيث اللغة، لهذا كان المجاز في المثل على مستوى الجملة النحوية.

٣ ـ علاقات المجاز العقلي (الإسناد المجازي).

٣ ـ أ. العلاقة الزمانية:

يكون المسند إليه زمنا يشتمل على الفعل المسند أو ما في معناه: ويسند فيها الفعل الى الزمان الذي وقع فيه، نحو: عركته الأيام، وأدركه الوقت، ونبت الربيع، والمراد: عركته التجارب، وأدركته المشاغل، ونبت العشب، فأسند الأفعال: (عرك، أدرك، نبت) إلى (الأيام، الوقت، الربيع) وكل منها مسند إليه غير حقيقي، لأن المسند إليه الحقيقي هو ما حصل في هذه الأزمان أي (التجارب، المشاغل، العشب)، ففي كل من الجمل الثلاث مجاز عقلي أسندنا فيه الفعل إلى زمنه بدلا من الفاعل الحقيقي ، والقرينة حالية. والعلاقة زمنية.

٣ ـ ب. العلاقة المكانيّة:

ويكون المسند إليه مكانا يجري فيه المسند (الفعل أو ما في معناه)، ويسند فيها الفعل إلى المكان الذي وقع فيه، كقولنا: حديقة غنّاء، ومكان مزدحم، ضجّت القاعة وجرى النهر، ونحن نريد حديقة طيورها غناء، ومكانا مزدحم الناس، وضج القوم في القاعة، فأسندنا الأفعال أو ما في معناها (غناء، مزدحم، ضجّت، جرى) إلى المكان الذي وقعت فيه (حديقة، مكان، قاعة، مجرى) وليس إلى الفاعل الحقيقي لكل منها (الطيور، الناس، القوم، النهر) ففي كل من الجمل الأربع مجاز عقلي أسندنا فيه الفعل أو ما في معناه الى مكانه بدلا من إسناده الى الفاعل الحقيقي، والعلاقة مكانية، ومثله قول الشاعر العربى (الوافر):

إذا سقط السّماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر، والسّماء مكان المطر.

٣ ـ ج. المصدريّة:

تكون في التراكيب التي يسند فيها الفعل أو ما في معناه الى المصدر من لفظه: وفيها يسند الفعل الى مصدره بدلا من الفاعل الحقيقي، نحو: دارت دورة الدهر، الله جلّ جلاله، جن جنون الرجل، ونحن نريد: دار الدهر، وجلّ الله ، وجنّ الرجل، ولكننا أسندنا الأفعال الى مصادرها (دورة، جلال، جنون) وكل منها مسند إليه بدلا من إسنادها الى الفاعل الحقيقي (الدهر، الله، الرجل) ففي كل من الجمل الثلاث مجاز عقلي أسند فيه الفعل الى مصدره فالعلاقة مصدرية، ومنه قول الشاعر (البسيط):

قد عزّ عزّ الألى لا يبخلون على أوطانهم بالدم الغالي إذا طلبا.

٣ . د. الفاعليّة:

يكون بإسناد ما بني للمفعول (اسم المفعول) إلى الفاعل، ويسند فيها الفعل إلى صيغة اسم المفعول ، والمراد اسم الفاعل نحو: ليل مستور، وسيل مفعم، والمراد ليل ساتر وسيل مفعم. فاستعملت صيغة اسم المفعول (مستور ، مفعم) وانت تريد معنى الفاعلية (ساتر، مفعم) ففي العبارتين مجاز عقلي أسند فيه المبني للمفعول الى الفاعل والقرينة حالية والعلاقة فاعلية، ومنه قوله تعالى: (إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) مريم: ٦١، أي كان وعده آتيا، وقوله تعالى: (جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً) الإسراء: ٤٥، أي حجابا ساترا، ومثل هذه العلاقة نادر في اللغة.

٣ . هـ. المفعولية:

وتكون في تركيب يقوم على إسناد الفعل أو ما في معناه الى المفعول به في الأصل. ويسند فيها الفعل الى صيغة اسم الفاعل والمراد اسم المفعول نحو: مكان آمن، طريق سالك ، غرفة مضيئة، والمقصود: مكان مأمون، وطريق مسلوك، وغرفة مضاءة. فاستعملنا صيغة اسم الفاعل (آمن، سالك، مضيئة) ونحن نريد معنى المفعولية (مأمون، مسلوك، مضاءة) ففي العبارات الثلاث مجاز عقلي أسند فيه المبني للفاعل الى المفعول، والقرينة

حالية ، فالعلاقة مفعولية، ومنه قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ) القارعة: ٦ . ٧، ومنه قول الأعشى:

حتى يقول الناس ممّا رأوا يا عجبا للميّت الناشر

أي المنشور.

٣ . و. السّببية:

ويكون المسند إليه في التركيب القائم على المجاز العقلي سببا في إحداث المسند، ويسند فيها الفعل إلى السبب الذي أدّى إليه، نحو: نبت الغيث، فتح القائد المدينة، بنت الحكومة جامعة، والمعروف أن الذي نبت هو العشب والغيث هو سبب نباته، وأن الذي فتح المدينة هم الجنود والقائد هو السبب، وأن البنائين هم الذين بنوا الجامعة والحكومة هي السبب في البناء، ولقد أسندت الأفعال في الجمل الثلاث الى أسبابها بدلا من إسنادها إلى الفاعلين الحقيقيين (العشب، الجنود، البنائين)، ومنه قوله تعالى: (وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ) غافر: ٣٦.

لقد أسندت الآية فعل (ابن) الى فاعل هو ضمير مستتر عائد الى هامان، وهامان ليس الفاعل الحقيقي بل الفاعل الحقيقي هو العمال لكن هامان هو السبب فالعلاقة سبّبية، ومنه قول المتنبّي في ملك الروم بعدما هزمه سيف الدولة.

ويمشي به العكّاز في الدير تائبا وقد كان يأبي مشي أشقر أجردا

والعكاز هنا هو سبب المشي أو آلته على وجه الدقّة، والمجاز يتمثل في إسناد فعل المشي الى العكاز، والحال أنه وسيلة في إحداث المشي.

تمارين:

١ . وضّح المجاز العقلي في ما يأتي وبيّن علاقته وقرينته.

قال الشاعر:

تكاد عطاياه يجنّ جنونها إذا لم يعوّذها برقية طالب

وقال المتنبي:

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزّا يخضب البيض بالدّم

ويوما يغيظ الحاسدين وحـــالة أقيم الشقا فيها مقام التنّـــــعم

وقال آخر:

يأمر السيف في الرقاب وينهى ولممصر على القذا إغضاء

وقال آخر:

إنّ الدّيار تريق ماء شؤونها كالأمهات وتندب الأحياء

وقال آخر:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

&&&&&&&&&&

الفصل الثالث
نماذج تطبيقية

المبحث الأول
من خطب الحجاج البلاغية

أولا: **خطبته في العراق**:

قال عبد الملك بن عمير: بينا نحن جلوس في المسجد الأعظم بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج بن يوسف، قد قدم أميراً على العراق فاشرأب نحوه الناس، وأفرجوا له إفراجة عن صحن المسجد، فإذا نحن به يتبهنس في مشيته، عليه عمامة خز حمراء، منتكباً قوساً عربية، يؤم المنبر، فما زلت أرمقه ببصري حتى صعد المنبر، فجلس عليه، وما يحدر اللثام عن وجهه، وأهل الكوفة حينئذ لهم حال حسنة، وهيئة جميلة، وعز ومتعة، يدخل الرجل منهم المسجد ومعه عشرة أو عشرون من مواليه، عليهم الخزور والفوهية، وفي المسجد رجل يقال له: عمير بن ضابئ البرجمي، فقال: لمحمد بن عمر التميمي، هل لك أن أحصبه؟ قال: لا حتى أسمع كلامه، فقال: لعن الله بني أمية! يستعملون علينا مثل هذا، ولقد ضيع العراق حين يكون مثل هذا أميراً عليه، والله لو كان هذا كله كلاماً ما كان شيئاً، والحجاج ينظر يمنة ويسرة، حتى غص المسجد بأهله، فقال: يا أهل العراق! إني لا أعرف قدر اجتماعكم إلا اجتمعتم، قال رجل: نعم- أصلحك الله- فسكت هنيهة لا يتكلم، فقالوا: ما يمنعه من الكلام إلا العي والحصر-أى عدم القدرة على الكلام- فقام فحدر لثامه، وقال:

"يا أهل العراق! أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ..... متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله فإني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. ثم قال: والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأشدها مكساً، فوجهني إليكم، ورماكم بي، يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن العي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه، ولينهبن ماله، ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: "ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء" والتفت إلى أهل العراق فقال: لريحكم أنتن من ريح الأبخر، وإنما

أنتم كما قال الله تعالى: "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار".

اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: "أسكت يا غلام"، فسكت، فقال:" يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام"، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهاه ودخل قصر الإمارة ."

ثانياً: خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق:

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر فسمع تكبيرا في السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: "يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إني سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمذاني:

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذايا لهمدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي و صارما و أنفا حميا تجتنبك المظالم

والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر.

****

ثالثاً: خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال: "أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه، إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه".

****

رابعاً: خطبته بعد وقعة دير الجماجم

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال: "يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضي إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟؟؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى اوطانها النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء عن أخيه ولا

يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم.

بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

يأهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات والزوات بعد النزوات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه، يأهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟؟ يأهل العراق ألم تنهكم المواعظ ؟؟ألم تزجركم الوقائع؟؟ ثم التفت إلى أهل الشأم وهم حول المنبر فقال: يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب يأهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء.

****

المبحث الثانى
التشبيه في القرآن

التشبيه في القرآن ليس هو مقياس البلاغة، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون في حال التشبيه والاستعارة والمجاز، تكون أيضًا في الكلام الخالي من كل هذا، وأخص ما يكون ذلك في آيات الأحكام، وقد يكون في القصص والاستدلال، وغير ذلك مما نعرض له، وقد تلونا آيات من آيات الأحكام، وجدنا فيها النص الكريم في حقائقه، وفي بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام، وهو بديع في ذاته من غير حاجة إلى البديع الصناعي، أو الاصطلاحي، فإنه فوق قدر البشر، وفوق ما يصطنعه البشر، وما يصطلح عليه العلماء، وإنه يتعلم منه، وإن كان لا يحاكي، ويؤخذ منه، وإن كان الوصول إلى مقامه غير ممكن.

لقد ذكر الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن): التشبيه: هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الاخر في حس أو عقل، وإن ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به في مرتبة واحدة، وإني لا أرى ذلك، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبي الحسن الرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ – فإنهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشيئين في مقام الشيء الآخر لأمر مشترك بينهما، وهو في ثانيهما أقوى مظهرًا أو أبين مخبرًا، كما تقول على كالأسد في الشجاعة، فهو في الأسد أظهر، ولا يمكن أن يقال: إن أحدهما يسد مسد الآخر، صورة ومعنى.

ولنترك التعريف، ولننظر في قوله من بعد، فهو يقول: وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء، وهو على طبقات في

الحسن، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما، والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه.

ويذكر وجوه التشبيه وأنواعه فيقول في ذلك: منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما لا قوة من الصفة، فالول نحو تشبيه المعدوم بالغائب، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم، والثالث تشبيه إعادة الأسجام بإعادة الكتاب، والرابع تشبيه ضياء النهار.

ولا شك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم، فهن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه، كتشبيه غير الواضح بالواضح، كما ترى ذلك في كثر من الآيات القرآنية، وكالتشبيه الذي يقصد به بيان ما أكنَّه سبحانه، وما خلق وما دبَّر فهو تقريب بالمغيب عنه إلى المعلوم لنا، وما عند الله أعظم وأكبر، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلي من المعنى الجزئي، أو لتصوير المعني الكلي في بعض جزئياته؛ كقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١] فإنه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلي وهو المعنى الجامع الذي يوضح به الحقائق بالأمثال التي ضربها وبينها للناس، ومن ذلك الأمثال التي تضرب لتقريب أصل الخق والتكوين من عقول الملكفين، وهكذا، وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه، ولكنه غير بيَّن.

ولقد قسَّم أبو الحسن الرماني التشبيه بالنسبة للغرض منه إلى قسمين: فيقول: التشبيه على وجهين: تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفَّار بالسراب، وتشبيه الحقيقة نحو: هذا الدينار كهذا الدينار، فخذ أيهما شئت.

ولكن القول: إن ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكلام الناس، أمَّا القرآن الكريم فإن كل تشبيهاته فيها البلاغة وفيها الحقيقة، والمثل الذي ذكره وإن كان في أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة، فإن التشبيه صادق في الواقع؛ لأن أعمال الذين كفروا هي السراب الذي له واقع، ولكنَّه وهم يسيطر بأبصار ضالّ، فكما أنه لا جدوى منه، والمتعلق به لا يتعلق بأمر واقع، فكذلك إذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم واهمون، والصفة المشتركة في التشبيهين هي أن الوهم وهو ما ليس واقعًا، وتصوروه على أنه واقع، فقد تصوروا أن أعمالهم حسنة؛ إذ زينت لهم أمرًا فظنّوه أمرًا حسنًا، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء.

ولذلك يمكن القول: إنَّ الوجهين محققان في كتاب الله تعالى، ففي التشبيه القرآني الحقيقة الصادقة، والبلاغة القائمة المعجزة، وقد أتى بالأمثلة على وجه التشبيه التي ذكرها، وتبعه الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، فلا ضير علينا إذا تابعناه، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره.

التشبيه الذى لا يقع عليه الحس:

ذكر الرماني، وتبعه الباقلاني مثلًا للتشبيه الذي شبه فيه ما لا يقع عليه الحس بما يقع بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [النور: ٣٩]، هذا ما ساقه الرماني من الآية، ولنتمّه ببيان ما فيها من تشبيه، فقد قال تعالى بعد ذلك: {وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٣٩، ٤٠]، وقد علق الرماني على التشبيه الأول في الآية الأولى، فقال: وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه الحاسة، وإن اجتمعا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم

يظهر أنه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغًا، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأنَّ الظمآن أشدُّ عليه حرصًا، وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الأمنية حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد، نعوذ بالله من هذا الحال، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة.

ولم يبين لنا الرماني لماذا كان تعبير القرآن في التشبيه حيث يرى السراب، أبلغ من أن يقال يحسبه الرائي ماء، لم يبين بوضوح أوجه ذلك، ونرى أنَّ قول القائل يحسبه الرائي ماء يفسد التشبيه ولا يفيد الحاجة؛ لأن النص فيه ما يفيد الرغبة في طلب الماء وشدة الحاجة إليه، وذلك محقق في المشبه؛ إذ إن الذين كفروا بآيات الله في وقت حاجتهم إلى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون إلى ما يتقدمون به إلى ربهم من عمل صالح، كالظمآن يطلب الماء.

وأن التشبيه يدل على حيرة الكافرين حتى يتوهموا ما لا يقبل الوقوع واقعًا، وقد أكَّد حيرتهم ما جاء بعد ذلك؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠].

فإذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون في عملهم خيرًا، فيكونون كالظمآن يحسب السراب ماء لحيرتهم، واضطرابهم وحاجتهم إلى الماء، فالمثل الثاني يصور حيرتهم، بسبب أنهم في ظلام دامس، فقد شبه سبحانه وتعالى – حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم، وانقطاع المل وأنَّهم يظنّون الخير حيث لا مظنَّة، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها، وفوق هذه الظلمات سحاب يوجد غمَّة، فليست أعمالهم خيرًا ولكنها شرٌّ عظيم عليهم، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالي أعمال الشر

فيهم، وسيرهم في طريق الغي الذي لا حدَّ له، وقد تكاتف عليهم سوء ما فعلوا.

وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم في حيرة يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه، وإذا توهموه في أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة، وأنهم بسوء أعمالهم في ظلمات بعضها فوق بعض، وهي في نفوسهم، وما يحيط بهم ظلمة داكنة لا يجدون بصيصًا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته، والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان تدلان على كمال الحيرة وكمال الظلمة، فالمثل الأول يعطي صورة عطشان يطلب الماء، فيتوهمه في سراب فيجري وراءه عطشان صاديًا، حتى إذا أجهدته المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئًا، والثاني يعطي صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة فوق واحدة. وإذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل إليه النور للسحاب الذي كأنه الغمة، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس، كالمثل السابق في قوله: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: ١٨]، ويقول الرماني في التعليق على التشبيه: فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، فقد اجتمع المشبه والمشبَّه به في الهلاك وعدم الانتفاع، والعجز من الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة.

هذا كلام الرماني وهو صدق، وإني أذوق من التشبيه شيئًا بيانيًّا آخر، ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر في الوجود في زعمهم، ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا، ولكنهم يفاجئون بربح شديدة في يوم عاصف تبدد ما كانوا عليه من أحلام، كانوا يتوهمون أنَّ ما لهم في الدنيا ينفعهم، فلمَّا جاء يوم القيامة بددت أحلامهم، فتقدموا عاطلين في حلبة العمل الطيب، وكان ذلك هو الضلال البعيد، لأنهم زعموا باطلًا، ثم رأوا

الحقيقة عيانًا، وفي ضمن القول عبَّر عن عملهم بأنه سراب، أي: إنه شيء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء في ذاته.

تشبيه ما لم تجر به العادة:

وقد جاء الرماني بمثل فيه تشبيه ما لم تجر به العادة بما تجري به العادة، وهو قوله تعالى في توثيق الميثاق على بني إسرائيل: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٧١]، ويقول في ذلك الرماني: و هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة، وفيه أعظم الآيات لمن فكّر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به، ليطلب الخبر من قبله، ونيل المنافع بطاعته.

هذا ما ذكره الرماني في معنى التشبيه، وهو تشبيه ما لم تجر به العادة، إلى ما جرت به العادة، كأنَّ التشبيه كان لغرض تقريب المعنى، وتصوير الغريب كأنه قريب، وذلك في تشبيه الجبل مرتفعًا كأنه ظلة، وهذا المعنى في ذاته صحيح، ولكنه فيما أعتقد لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه؛ لأن رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم, وحملهم على الأخذ به، وإثبات قدرة الله تعالى، وإلقاء المهابة في قلوبهم، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الإحاطة، وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع عليهم، ليعرفوا أنَّ ميثاق الله له رهبته، وأن عليهم طاعته، ولذلك قال سبحانه بعد أن روا الجبل مرفوعًا عليهم وأنه محيط بهم {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} – أي: بعزم شديد، {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

ومن هذا النوع الذي ذكره الرماني قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤].

وقد أخرج الرماني التشبيه كالآية السابقة في نظره، فقال: قد أخرج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة، ثم الهلاك بعده، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وإن طالت مدته، وصغير وإن كبر قدره.

وما ذكره الرماني حق في إيجاره، ولكنه ناقص، ونوضحه بعض التوضيح فنقول: إن التشبيه تصوير للحياة، فإن مثلها في بهجتها ومسراتها وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهي، والزينة الباهرة ليس لها بقاء، وإنما مآلها إلى الفناء، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذي يأكل منه الناس مستمتعين، والأنعام والدواب، وأنه إذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرته ومتعته، وامتلاء أهل الأرض بالغرور، وظنَّوا أن كل شيء في قبضة أيديهم جاءهم أمر الله، فصار النبات هشيمًا، والإنسان رميمًا، كأن لم يغن أحد بالأمس، وإن ما ذكره الرماني صادق في إيجازه، ولكنه لا يصور الصورة التي يدل عليها التشبيه، وهو يريك الحياة كالعروس في جلوتها، ثم كالهشيم في صغاره.

ومن التشبيهات التي ساقها الرماني قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} [القمر: ١٩، ٢٠].

ويقول الرماني في بيان وجه التشبيه: وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكه إياهما، وفي ذلك توحد الآية الدالة على عظم القدرة، والتخويف من تعجيل العقوبة.

وإن هذا القدر الذي ذكره الرماني متحقق، ولكن لا يمكن أن يكون وجه التشبيه هو تشبيه ما لم تجر العادة به بما جرت به العادة فقط، إنما الألفاظ والأسلوب، وما يثيره من صور بيانية تعلو به عن أن يكون لمجرد إثبات ما لا تجري به العادة إلى ما تجري، إنما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى، فالله تعالى أرسل عليهم ريحًا شديدة البرد، في يوم كله بأس وشدة، وهو كالنحس عليهم، طويل في آلامه، ومستمر فيها ولو كان الزمن قصيرًا، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بمالهم وطغوائهم، وينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الإصرار على البقاء، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت في أعماق الأرض.

هذا بريق التشبيه المرعد الذي يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد.

ومن التشبيهات التي ذكرها الرماني على أنها تقرب ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، قوله – تعالت كلماته: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧]، وقال في التشبيه: قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به عادة، وقد اجتمعا في الحمرة وفي لين الجواهر السيالة، وفي ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتنصرَّف الهمم إلى ما هناك بالأمل.

وإنَّ تصوير التشبيه وقصره على ذلك الوجه، وهو تشبيه ما لم تجر به عادة إلى ما يجري به عادة، ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه، وما يثير من صور.

إن التشبيه تصوير لما يقع إذ تقوم القيامة، فالسماء ذلك البناء الذي تجري فيه الكواكب والنجوم، كل في مساره، وهي البناء الذي بناه الله تعالى شامخًا عظيمًا ذا بروج صار وردة كالدهان.

ومن ذلك تصويره للدنيا إذ تقوم القيامة، فتكون السماء لينة كالورد الذي يشبه الدهن مبالغة في ليونته التي تصل إلى حد السيولة.

تشبيه ما لم يعلم إلا بالنظر:

ويسوق الرماني أمثلة يتبين فيها تشبيه ما لم يعلم إلا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال، ومن ذلك قوله تعالى: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ٢١]، ويقول في التشبيه هنا: قد أخرج ما لا يعلم بالبداهية إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قدر تقرر في النفس من الأمور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة وقد اجتمعا في العظم.

وإنا نجد الآية الكريمة في تشبيهها ليست من قبيل تشبيه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة، فإننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة، بل يعلم بالنقل المصدق، فهما سواء في صلتهما بالعلم الضروري، وإنَّما إذا قيل: إنَّ المراد تصوير المعقول بما يتصور أن يكون مشهودًا محسوسًا، والجميع بإخبار الله تعالى لا بمجرد النظر، سواء كان الأمر ضروريًّا أم نظريًّا، وإنا إذا تلونا ما قبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

ونرى من هذا أنَّ المراد السعة في النعمة، وأن السعة في النعمة كالسعة في المكان، وهي تدل عليه، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى، وأن الكلام كله يصور الجنة بأنها خير من الوجود كله، وأنها أوسع، وأنه إذا كانت النار تسع كل المجرمين؛ لأن لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم، فالجنة تسع المتقين الأبرار؛ لأنها واسعة عريضة كعرض السماء والأرض.

ومن التشبيه الذي ذكره الرماني على أنه تشبيه ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بها قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، ثم قال: وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب لمن ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير، ولسنا نرى في الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم بالبداهة، والمشبه به يعلم بالبداهة.

إن الذي نراه ليس علم الرواية وعلم الدراية، وإنما الذي تتجه إليه الآية الكريمة في صدرها ونهايتها، وهو تشبيه علم لا يقرنه العمل، بعدم العلم، فهم يحملون علمًا لا ينتفعون به عملًا، بل يعملون بنقيضه، يحملون علم الهداية ولا يهتدون، كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

وكان تشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفارًا وهو غير صالح للانتفاع، وفي التعبير القرآني إشارة بيانية تبيّن أن العمل هو ثمر العلم، ولا يقال أنَّه قد نال من أخذه من غير عمل، وذلك قوله تعالى: {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} أنَّ الله حملهم التوارة علمًا لأجل العمل، فعلموها ولم يعملوا بها، فكانوا غير حاملين.

تشبيه يكون فيه المشبه أضعف من المشبه به:

وقد ساق الرماني من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون أضعف صفة من المشبه به فيلحق به؛ لأنه أقوى صفة منها، ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الرحمن: ٢٤]، ويقول في ذلك: فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها، وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها، وقطع الأقطار البعيدة فيها، وإن ذلك الكلام حق، فإنَّه إذا كان الجامع بين المشبه والمشبه به القوة، فالجبل أقوى، وإذا كان الظهور فالجبل أظهر، ولكن يلاحظ

أنَّ المقصود من التشبيه لا يعني به الرماني كثيرًا، بل تكون عنايته بالأوصاف الظاهرة، أو المقاصد القريبة. وأن المقصود في هذا السياق هو بيان سر الله تعالى في خلقه وتخيره للإنسان، فإنه إذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الإنسان كذلك، وهي رواسي الأرض، وبها ثباتها، فإن الجواري وهنَّ السفن التي تقارب في علوِّها وفي قوتها وأثقالها الجبال تجري على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه، وتجري فيه، وتنقلهم إلى بلد لم يكونوا واصلين إليه بغيرها، فقدرة الله تعالى فيها أظهر؛ لأنها منشأة ترى نشأتها، وهي تجري بأمر الله تعالى ولا يجرونها.

ويضرب الرماني مثلًا فيما يجري في المعنويات. ومن ذلك قوله تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: ١٩]. ثم يقول: وفي هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد، وهو بيان عجيب، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس، وفي ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان، وأنَّه لا يساويه مخلوق على صفته في القياس، ومثله قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الجاثية: ٢١].

ونجد الرماني في المثال يأتي بالتشبيه منفيًّا مستنكرًا، كما أتى به محققًا موجهًا، فإنَّ الاستفهام هنا لإنكار الواقع، فهُم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت، قائمين بالسقاية والرفادة، وتنافسوا على ذلك زاعمين أنّ فيه الخير كله، وأنه قد يغنيهم عن الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، بل يزعمون أنهم بدانة البيت الحرام، والقيام على السقاية والرفادة أفضل ممن آمن بالله وجاهد في سبيه، والحقيقة أنهما لا يستويان، فالإنكار للمشابهة والتساوي بينهما فضلًا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضل وأشرف.

هذا ما ساقه الرماني من وجوه التشبيه، وقد نقلناها، كما نقلها الباقلاني؛ لأنها وجوه لها اعتبارها؛ ولأن فيها ضبطًا لأقسام التشبيهات القرآنية، وإن كانت غير شاملة لكل الأقسام، بل إنها ذات وجوه شتى.

ولكنه لم يتعرض إلا قليلًا لأغراض التشبيهات ومراميها، وما تصوره من صور بيانية، وما تنتجه من بسط للمعاني النفسية، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية، ووصف للملائكة الأطهار، والآدميين الأخيار.

ولنضرب بعض أمثلة القرآن الكريم التي تجعل فيها المعاني كأنها صور محسوسة لافتة للعقول إلى الكون وما فيه، أقرأ قوله تعالى في تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل، وظهور ضوء الحق، وعمي بصائرهم عنه، فقد قال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧]، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل، ولكن يريد الحق تابعًا لهواه، فهو يطلبه ليستضيء بنوره، ولكن ما أن يبدو النور حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذي يسيطر على قلبه، فيضيء النور ما حوله، ولا يستضيء به، وهو الذي استوقد النار، ثم ينتهي أن يصبر كالصمّ الذين لا يسمعون؛ لأنه لا يستمع لنداء الحق، ويصير كالبكم؛ لأنه لا ينطق بالحق الذي يجب عليه أن ينطق به، وكالأعمى الذي لا يميز بين الأشياء؛ لأنه قد طمس الله تعالى على بصيرته فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه، وحق قامت البينات عليه، وفي الحكم عليهم بالصم والبكم والعمي تشبيهات فردية، وهي تقوم على التشبيه.

والتشبيه في هذا النص تشبيه حالٍ بحال، والآية صريحة في ذلك؛ لأنَّ الله تعالى يقول: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا}، أي: حالهم كحال الذي استوقد نارًا، فهو تشبيه تمثيلي شبهت حال المنافقين، وأكثرهم من اليهود في كونهم كانوا يتطلعون إلى نبي قد حان حينه، وأدركهم إبانه، فلما جاءهم ما

عرفوا كفروا به، فلمَّا بدا الضوء أضاء من حولهم، ولم يستضيئوا به، فلم يهتدوا بقولٍ سمعوه، ولا نطقوا بحق عرفوه، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صمًّا بكمًا عميًا.

وقد ضرب سبحانه وتعالى – في السياق القرآني مثلًا بتشبيه آخر، بمثل جانبًا من جوابنهم، فقال بعد التشبيه الأول: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٩، ٢٠].

وفي هذا المثل شبه سبحانه وتعالى – حالهم بأمرين: كل واحد منهما تشبيه قائم بذاته، أولهما: إنَّه سبحانه وتعالى – شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصبابًا، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيه رعد وبرق، وفيه الإنذار بالعذاب الشديد، فهم في خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت، وفي هذا تصوير لنفس منافقة، فهي نفس تائهة فارغة دائمًا لا تستقر على أمر، ولا تطمئن على قرار، فهم في اضطراب؛ لأنهم لا يؤمنون بشيء، والإيمان هو المطمئِن دائمًا، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، والجحود الموروث، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر، وخوف من غير مخوف، ولذلك يقول بعض علماء النفس: إنَّ النفاق منشؤه ضعف في النفوس.

والتشبيه الثاني متفرع عن التشبيه الأول، وإن كان يصلح تشبيهًا قائمًا بذاته، وهو ما أومأ الله تعالى إليه بقوله: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ}، وإن هذا تتميم للأول، وهو أيضًا قائم بذاته، فإنه إذا كان الرعد يجعلون أصابعهم في

آذانهم به، فالبرق الذي يصحب الصيب شديد مفزع له بريق يكاد يخطف أبصارهم، ولكن كان هو تشبيهًا لحالهم، وهي أنَّ المنافق متردد دائمًا، فالبريق يضيء لهم فيمشون فيه، ولكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم من نفاق، ويختم الله تعالى النص القرآني في هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة الله تعالى وسيطرته عليهم، وأنَّه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم حقيقة، كما فقدوا سماع الحق استماع إنصات، وإدراكه إدراك طالب للحقيقة.

والتشبيه في هذا المثل كسابقه تشبيه تمثيلي، إنَّه شبَّه حالهم في ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثًا منقذًا، بل مرهبًا ومفزعًا، فكانوا في خوف واضطراب من غمام مظلم، وريح عاصف، ورعد قاصف، وبريق خاطف، وصاروا يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت، فهو تصوير لضعفهم، وفي التشبيه الثاني الذي هو فرع بالنسبة لما قبله، تصوير لفزعهم من البرق، وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم، وهي في ذاتها مضيئة، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم، ويستمرون في غيهم، والله قاهر فوقهم، لو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم.

والخلاصة:

ألوانه لا بُدَّ أن نشير إلى أمور ثلاثة:

أولها:

إن التشبيه بلا شك من أسرار الإعجاز، ويعده الباقلاني من أسباب الإعجاز، ولكن بعد الكلام في القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأيّ لون من ألوانه معجزًا بلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سببًا واضحًا يدرس على أساسه، وتتعرف اسرار البلاغة فيه من إشعاعه، وليس معنى ذلك أنَّ

الإعجاز ليس بيانيًّا، بل هو بياني، ويبدو ذلك في تساوق المعاني، وأخذ الألفاظ بعضها بحجز بعض في إحكام قول ونغم ورنين يكون أحيانًا شديدًا يصك آذان المنذرين، وأحيانًا كأنه نسيم عليل يحيي النفوس ويشفي أسقام القلوب، وأحيانًا يكون وصفًا عميقًا لخواطر النفوس، وما يستكن في القلوب، وهذه هي البلاغة في القرآن التي تعلو أن توضيحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه، وكما تحس بالحرارة الدافئة، ولا تعرف ماهيتها، والله على كل شيء قدير.

الأمر الثاني:

إنَّ تشبيهات القرآن أيًّا كان وجهها صور بيانية، تتضح منها الحقائق الظاهرة، والمعاني العاطفة، كأنها أمور محسوسة مرئية، فإذا كان التشبيه يأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرؤه كأنَّك ترى رأي العين رجلًا استوقد نارًا، والسين والتاء للطلب، وهما يدلان على أنه بذل مجهود في طلب الضوء، وعالج الأمور في طلب الوقود، حتى وصل إليه بجهد ومشقة، ولكن ما إن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن في الضوء فائدة له، فلم ير النور الذي طلبه، وأصمّ أذنه عن الحق، وانقبض لسانه فلم ينطق بحق، والبيان القرآن الكريم صور ذلك كأنك تراه لا تقرؤه، تعالت كلمات الله.

والتشبيه بما تضمَّن من تشبيه في آخره يريك صورة الضعف وما يحدثه النفاق في النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار، ولا تطمئن على قرار، فهي تسير برعونة نحو المطامع، وتستخذي وتذل أمام المفازع، وقد شبههم بقوم نزل عليهم مطر ينصب انصبابًا، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم، والرعد بهزيمه يزعجهم، والبرق يخطف أبصارهم، وذلك تصوير كأنه المرئي، وتبين لمعنى الخوف والاضطراب الذي

يسكن قلوبهم، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم، ومطامع تحركهم، والشر يحوط بهم في كل أحوالهم.

الأمر الثالث:

الذي نجده في تشبيهات القرآن أننَّا نجده يقرب المعاني، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل، اقرأ قوله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: ٧٥، ٧٦]، ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام إذ يسوي بينها وبين الخلاق العليم – بحال من يجعل العبد الملوك الذي لا يقدر على شيء بحال من رزقه الله تعالى رزقًا حسنًا، وهما لا يستويان حالًا وشأنًا، النتيجة لا يستوي صنم لا يقدر على شيء بالله تعالى الذي يملك الوجود كله، وهو على كل شيء قدير.

وفي التشبيه الثاني كان التشبيه بين حال المشركين في تسويتهم بين الله القادر، والحجر الذي لا يضر ولا ينفع، وحال من يسوي بين رجل أبكم وهو كَلٌّ، وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله.

وإن الله سبحانه وتعالى – يقرّب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق، وتوضيح الأدلة بما يقربها، ولو كان ذلك بالأشياء التي يستحقرها المشركون، وهي في ذاتها ليست بحقيرة ولكنها جليلة، لأنها من خلق الله تعالى، ولقد قال الله تعالى في ذلك: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ

آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦].

****

المبحث الثالث:
التشبيه بالأمثال في القرآن[1]

ورد في كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني: أن أصول محاسن الكلام تجتمع في «التشبيه والتمثيل والاستعارة، ... والمجاز». ويُفرِّق علماء البلاغة والبيان بين الاستعارةِ والمجاز؛ فالمجاز أعمُّ من الاستعارة، كما يفرقون بين التشبيه والاستعارة، فهو مغزاها وجوهرها، وإن كان مقصدُ الاستعارة هو التشبيه على وجه المبالغة والاختصار والإيجاز. وبينما ينقل المستعير اللفظ عن أصله في اللغة، فإن ضارب المثل لا يفعل ذلك ولا يقصدُه، ولكنه يقصدُ إلى تقرير الشبه بين الشيئين. وفرقوا أيضًا بين التشبيه والتمثيل، فهما وإن اقتضى كلٌّ منهما شيئين؛ مشبهًا ومشبهًا به؛ إلا أن التمثيلَ تشبيه عقلي، والتشبيه لا يُشترط فيه ذلك.

وإذا كان التشبيه قاسمًا مشتركًا بين أصول محاسن الكلام؛ فإن له حروفًا وأسماء تدل عليه. وأهمها همزةُ الاستفهام في بعض استعملاتها، وحرف الكاف، ولفظ مثل. وقد توزعت الأمثالُ في القرآن الكريم بنسب مختلفة بين الورود بلفظ «مثل» أو بأحد تصريفاته، والورود بكاف التشبيه في مواضع كثيرة، والورود بهمزة الاستفهام في سياقات متنوعة. وجاءت الأمثال كذلك بصيغ أخرى لم تشتمل على تشبيه أو استعارة في بعض المواضع من آيات القرآن، ومن أهمها القصص القرآني.

وأيًا كان نمطُ المثل القرآني؛ فإن «الأمثال كلها من قبيل التمثيل، والتمثيل من باب الاستعارة»، كما قال عبد القاهر الجرجاني. والسبب في رأي الشيخ أبي زهرة هو أن «الاستعارةَ ذات شعبتين، إحداهما أن تكون في

[1] - من مقال للأستاذ إبراهيم البيومى "بتصرف".

تشبيه شيء بشيء، من غير أداة كتشبيه الرجل بالأسد، وتشبيه حال بحال، وهو التمثيلُ، وهاتان الشعبتان تجريان في التشبيه الذي يكون بأداة التشبيه، كما تكونان في الاستعارة؛ إذ إنهما متلاقيان في المعنى والاختلاف في طريق الأداء». وترتسم المعالم العامة لمواقع الأمثال في القرآن في أربعة مواضع هي:

١. التشبيهُ بالأمثالِ

تشكلُ مادة «مثل» وتصاريفها اللغوية المعاني الأساسية في مواقعها القرآنية، وترسم ملامحها العامة في سياقاتها. وقد وردت مادةُ «مثل» وتصاريفها في القرآن الكريم ١٨٠ مرة، باثنين وعشرين اشتقاقًا، منها ٨٦ مرة بمعنى شبه، أو نظير، أو وصف، أو علة، أو شرح، مع ملاحظة تكرار لفظ مثل بإضافة كاف التشبيه (كمثل) في بعض المواضع بهذا المعنى المذكور، و٨٨ مرة بمعنى مساوٍ تمام المساواة. ومرتين بمعنى الأمثل أو الأفضل، ومرة بمعنى العقوبات الفاضحة، ومرتين بمعنى شَخُص أو تَجسَّد، ومرة بمعنى شخص/أو تجسد.

٢. التمثيل بكاف التشبيه

تشكل «كاف التشبيه» باستعمالاتها المتعددة معاني الأمثال الواردة بصيغتها وترسم ملامحها العامة، وقد ورد التشبيه أو التمثيل بكاف التشبيه في القرآن الكريم بطريقتين:

الأولى:

بالدخولِ على حرف «إن» بغرض التمثيل والتوكيد، وقد وردت ٣٨ مرة، وهي تفيد التشبيه (كأن ١٠ مرات، كأنهم ١١ مرةً، كأنه ٥ مرات، فكأنما ٣ مرات، كأنها ٣ مرات، كأنما ٣ مرات، كأنهن مرتين، كأنك مرة واحدة).

الثانية:

بالدخول على الاسمِ بغرض التشبيه، وقد دخلت في القرآنعلى الاسم بغرض التشبيه ٢٢٣ مرة: منها ٨٦ مرة دخلت فيها الكاف على اسم الإشارة «ذلك»، ومرة واحدة على اسم الإشارة «ذلكم»، و٩ مرات على الاسم الموصول «الذين» بصيغة الجمع، و٥ مرات على الاسم الموصول «الذي» بصيغة المفرد. ومنها: ٥٩ مرة دخلت فيها على «ما» بمعنى الذي، و٩ مرات على «مَن» بمعنى الذي أيضًا. ودخلت على لفظِ «مثل» ١٣ مرة، وعلى «أمثال» مرةً واحدة، وعلى لفظ «دأب» ثلاث مرات. ودخلت الكاف مرتين على أسماء: شجرة، وهيئة، والأعلام، والأنعام. ومرة واحدة على: عرض. عذاب. الظلل. خيفتكم. الحجارة. الجواب. المفسدين. الفجار. غلي. جهر. الرميم. هشيم. لمح. الفخار. الدهان. زرع. الصريم. المجرمين. صاحب. القصر. الفراش. العهن. عصف. مشكاة. الطود. طي. صيب. ذكركم، وقديمًا اختلف علماء البلاغة والبيان في استعمالات كاف التشبيه وتأويلاتها. أما حديثًا فقد ذهب الشيخ عبد الله كنون (عالم مغربي، وكان رحمه الله عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة) إلى رأي له حجيتُه، وهو جواز دلالة كاف التشبيه على أربعة أوجه هي: التعليل، والتشبيه، والتمثيل، وأن تكون زائدة. وتدخل جميعُ حالاتِ التشبيه أو التمثيل أو التعليل بحرف الكاف في آيات الذكر الحكيمِ كلها في نطاق بحثنا هذا عن مقاصد الأمثال القرآنية.

٣. التمثيلُ والتشبيهُ بهمزة الاستفهام

تشكلُ همزة الاستفهامِ المعالم الرئيسية لهذا النوع من التمثيل. والتشبيه بالاستفهام عمومًا هو أوسع مواقع الأمثال في القرآن الكريم بحسب ما تبين لنا من استقصاء أسلوب الاستفهام فيه. فقد ورد الاستفهامُ في الكتاب العزيز في ١٢٦٠ موضعًا من آياته البالغ عددها ٦٢٣٦ آية؛ أي أنَّ أسلوبَ الاستفهام وحده يمثل ما يقرب من خمس الآيات الكريمة.

وهذه الكثرةُ في استعمال الاستفهام تدل على قوته في البيان بشكل عام. وقد استعملت همزة الاستفهام وحدها في ٥٦٠ موضعًا؛ أي ما يساوي نصف المقدار الذي جاء عليه الاستفهام بأدواته كلها في القرآن، وليست كلُّها مواقعَ تمثيل وتشبيه كما سيأتي في البيانات الإحصائية النهائية للبحث.

ويُعرف الاستفهامُ بأنه طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة من أدوات الاستفهام. وليس التشبيهُ أو التمثيلُ هو مقصد الاستفهام بالهمزة؛ بخلاف كل من كاف التشبيه، أو التشبيه بالتمثيل القياسي. فالاستفهام التقريري بالهمزة، مقصده هو أن يقر المخاطب بما يسأل عنه إثباتًا أو نفيًا. أما الاستفهام الاستنكاري بالهمزة فله مقاصدُ أخرى من أهمها: الدعوة للتفكر، والقياس، والاختيار، إضافة إلى مقاصد التوبيخ والاستهجان والتعجب والنفي والوعيد... إلخ.

ولكن ذهبَ بعض النحاة إلى أن الاستفهام بالهمزة يكون بقصد التسويةِ بين شيئين أو بين حالين. وهذا الرأيُ يكشف عن كثيرٍ من الأمثال الشارحة التي وردت في القرآن بأسلوب الاستفهام بالهمزة. والشواهد على ذلك كثيرة في آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾— الزمر: ٢١، ويدل سياق سورة الزمر على أن همزة الاستفهام بالهمزة (ألم) يفيد المقايسة أو المشابهة بين إنزال الماء من السماء، وإنزال الكتاب؛ وبين ما ينتج عن إنزالِ الماء من آثار في الأرض؛ من إنباتِ مختلف أنواع الزروع، ثم نموها واصفرارها، ثم صيرورتها حطامًا، وما ينتج عن إنزال الكتاب بالنسبة للذين يخشونَ ربهم فتلين قلوبهم لذكر الله، وبالنسبة للذين أضلهم الله فليس لهم من هاد. ومقصد التسوية بالهمزة الاستفهامية واضح في

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ۚ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾—الأحقاف: ٣٣، وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾—الشعراء: ١٣٦، والتمثيل بالغ الوضوح باستفهام الهمزة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾—سورة الحجرات: ١٢.

٤. التمثيل والتشبيه من خلال القصص القرآني، ودون أداة تشبيه

صنّف العلماء القصص القرآني في باب «الأمثال»، وصنّف الآيات التي تضمنت قياسًا تمثيليًا دون أداة تشبيه، في باب الأمثال أيضًا. واعتبر أن «القصص» نظير ما يرد في القرآن من ذكر الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع، كقوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾—البقرة: ٢٦٦، قال أحد العلماء: «ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال؛ هي أصول قياس واعتبار، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها، لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب»، فيقال فيها:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾—يوسف: ١١١، ويقول تعالى عقب حكاية القصص: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾—الحشر: ٢، ويقول تعالى:﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾—آل عمران: ١٣.

ولا زلنا في المراحل الأولى لحصر القصص القرآني، وكذلك لحصر صور التشبيه دون أداة تشبيه مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾—الإسراء: ٢٩، وغاية ما توصلنا إليه حتى الآن هو: أن القصص القرآني منه ما هو قصص الأنبياء والأمم السابقة، وقد أورد الشيخ عبد الوهاب النجار قصص واحد وعشرين نبيًا ورسولاً بمنهجية رصينة هي من أرقى المنهجيات التي اطلعنا عليها في تناول قصص القرآن (كتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، طبعة بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة. وتمتاز هذه الطبعة بأنها تتضمن نص تقريرين كتبتهما لجنة الأزهر التي رفضت منهجية الشيخ النجار وفندتها، وردود الشيخ النجار على التقريرين)، ومن القصص القرآني أيضًا ما هو قصص حوادث وشخصيات غابرة وفئات معينة من الناس سبقت بعثة الرسول بآماد طويلة، ومنه ما هو قصص وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنها قصص بعض الغزوات. وثمة خلافات كثيرة حول ما يصنف ضمن هذا النوع أو ذاك. وثمة خلاف آخر يصعب من مهمة حصر وتصنيف القصص القرآني وهو: هل القصص من المحكم أم من المتشابه؟ وما المقصود بالقصة القرآنية أصلاً؟ وما مقاصدها العامة والخاصة؟

وبخصوص مقاصد القصص القرآني، ثمة آراء متعددة أيضًا لم نصل –حتى الآن– إلى معرفة أيها الأرجح وما دليل الرجحان؟ فالقصص

القرآني هو من «المتشابه» حسب رأي بعض العلماء ومنهم يحيى بن معمر، والشوكاني، وهو من المحكم حسب رأي آخرين ومنهم ابن حزم.

أمّا مقاصد القصص فهي تشتمل على مقاصد البيان والوعظ والتشريع والكشف عن السنن الاجتماعية والتاريخية شأنها شأن بقية الأمثال القرآنية، وما يرجح تعددية مقاصد القصص، وعدم اقتصارها فحسب على مقصد الوعظ البليغ، ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية قديمًا، وما ذهب إليه العلامة أبو زهرة حديثًا وقال: «ومن صور التصريف البياني بالقصص القرآني بيان بعض الأحكام الشرعية، فإنَّ ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها؛ لأنها تكون أحكامًا متفقًا عليها في كل الشرائع السماوية، وبيان أنها غير قابلة للنسخ، وأنها مؤكدة ثابتة، وفي القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة».

وعلى أية حال فليس هذا إلا تمهيد لبحث موسع في القصص القرآني ومقاصده العامة باعتبار ما في تلك القصص من «أمثال» ضربها الله تعالى للناس لعلهم يتفكرون.

****

المبحث الرابع:
الاستعارة في القرآن الكريم[٢]

اقتصر الأقدمون عندما تحدثوا عن الاستعارة في القرآن على ذكر أنواعها من استعارة محسوس لمحسوس بجامع عقلى ومن استعارة محسوس لمعقول ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس ومن استعارة تصريحية أو مكنية ومن مرشحة أو مجردة إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة ، وهم يذكرون هذه الألوان ويحصون ما ورد في القران منها، ويقفون عند ذلك فحسب وبعضهم يزيد فيجرى الاستعارة ظانا أنه بذلك قد أدى ما عليه من بيان الجمال الفنى في هذا اللون من التصوير ولم أر إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة.

وليس مثل هذه الدراسة بمجد في تذوق الجمال وادرك أسراره ومن الخير أن تبين الأسرار التي دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية، وإذا أنت مضيت إلى الألفاظ المستعارة رأينها من هذا النوع الموحى؛ لأنها اصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى اكمل إحساس، وأوفاه وتصّور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموسا محسا، وحسبي أن اقف عند بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية، نتبين سر اختيارها: قال سبحانه: **{ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا }** فكلمة (يموج) لاتقف عند استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادا لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتي كلمة يموج إلا موحية

[٢]- كتاب من بلاغة القرآن تأليف أحمد أحمد بدوي "بتصرف".

بهذا المعنى ودالة عليه، وقال سبحانه: **{ربّ إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا}** وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشىءب في الرأس في بطء وثبات، كما النار في الفحم مبطئة ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقى ولا تذر.

كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب ،حتى لا يذر شىءئا إلا التهمة واتى عليه، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحى بهذا الشمول الذي التهم كل شىء في الرأس وقد تحثنا فيما مضى عما توحى به كلمة تنفس من إثارة معنى الحياة التي تغمر الكون عند مطلع الفجر.

وقال تعالى: **{وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون}** فكلمة نسلخ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا قليلا ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفيا من ظلمة الليل وقال تعالى: **{ وفي عاد إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم}** ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الاجداب الذي تحمله الريح معها. وكثر في القرآن اخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة يدل بها على معقول معنوى يصير به كأنه ملموس مرئي فضلا عن إيحاءات الكلمة إلى النفس خذ مثلا قوله تعالى: **{ وإذا اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينيه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون}** ألا ترى أن كلمة نبذ فضلا عن أنها تدل على الترك توحي إلى نفس القارئ معنى الإهمال والاحتقار لان الذي ينبذ وراء الظهر إنما الحقير المهمل، وقوله تعالى: **{ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق }** فكلمة القذف توحي بهذه القوة التي يهبط بها الحق على الباطل وكلمة يدمغه توحى بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل حتى يصيب رأسه ويحطمه فلا يلبث أن يموت وتأمل قوة

التعبير بالظلمات والنور يراد بها الكفر والإيمان في قوله تعالى:**{ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور}** وجمع الظلمات يصور لك إلى أي مدى ينبهم الطريق أمام الضال، فلا يهتدى إلى الحق وسط هذا الظلام المتراكم ومن ذلك قوله تعالى: **{ إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح }** فإنك تشعر في كلمة العقدة بهذا الربط القلبي الذي يربط قلبي الزوجين.....

ويطول بي القول إذا أنا وقفت عند كل استعارة من هذا اللون وحسبي أن أشعر الى بعض نماذجه كقوله تعالى: **{ فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين}** فكلمة الصدع بمعنى الجهر توحى بما سيكون من اثر هذه الدعوة الجديدة من إنها ستشق طريقها إلى القلوب وتحدث في النفوس اثر قويا وقوله تعالى:**{ واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا}** فاي صلة متينة ذلك الدين الذي يربطك بالله ، يثير هذا المعنى في نفسك هذا التعبير القوى المصور حبل الله، وقوله تعالى: **{ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون}** وقوله تعالى: **{ لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا}** وقوله تعالى: **{ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره}** وتأمل جمال إفراغ في قوله سبحانه: **{ ربنا افرغ علينا صبرا}** وما يثيره في نفسك من الطمأنينه التي يحس بها من هدأ جسمه بماء يلقي عليه وهذه الراحه تشبهها تلك الراحة النفسية ينالها من منح هبة الصبر الجميل – ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة انه استخدم إفراغ وهي توحي باللين والرفق عند حديثه عن الصبر – وهو من رحمته فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة صب فقال: **{ فصب عليهم ربك سوط عذاب }** وهي مؤذنه بالشدة والقوة معا.

وتأمل كذلك قوة كلمة زلزلوا في قوله تعالى:{ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا**

حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصرالله ألا أن نصر الله قريب} – ولو انك جهدت في أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدى معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف.

وقد تحدثنا فيما مضى عن جمال التعبير في قوله تعالى: { **ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به يوصل}** – وقوله سبحانه: **{ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم}** – وقد يستمر القرآن في رسم الصورة المحسوسة بما يزيدهما قوة تمكن لها في النفس، كما ترى ذلك في قوله تعالى{ اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين} – فقد اكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة والاهتداء في تصريف شؤونها – وقد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به روعة التعبير كما تجد ذلك في قوله تعالى: **{ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}** – فقد يبدو أن المناسبة تقضي أن يقال فالبسها الله لباس الجوع ولكن إيثار الذوق هنا لأن الجوع يشعر به ويذاق وصح أن يكون للجوع لباس لان الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضنى والشحوب.

وقد يشتد وضوح الأمر المعنوى في النفس ويقوى لديها قوة تسمح بان يكون اصلا يقاس عليه كما ترى ذلك في قوله سبحانه{ وأنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية} فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة والفوران أصلا يشبه به خروج الماء عن حده لما فيه من فورة واضطراب....

وعلى النسق جاء قوله تعالى{ وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتيه} فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتو والجبروت –وقد يحسم القرآن المعنى ويهب للجماد العقل والحياة زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس وذلك بعض مايعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكينة، ومن أروع هذا التجسيم قوله سبحانه: **{ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح}** ألا

تحس بالغضب هنا وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ثم سكت وكف عن دفع موسى وتحريضه .. – ومن تعقيل الجماد قوله سبحانه{ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين} وفي ذلك التعبير ما يدل على خضوعهما واستسلامهما... – وقوله سبحانه: { **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه}** – وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه يؤثر الراحة لطول مامر به زمن وقوله تعالى: **{وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير}** – فهذا التمّيز من الغيظ يشعر بشدة ما جناه أولئك الكفرة حتى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الذي لايحس وعلى هذا النسق قوله سبحانه: **{كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى }** ألا تحس في هذا التعبير كأن النار تعرف أصحابها بسيماهم فتدعوهم إلى دخولها ومنه قوله تعالى: **{ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت}** – وفي ذلك ما يشعرك بالحياة التي تدب في الأرض حين تاخذ زخرفها وتتزين هذا

– وقد كثر الحديث عن قوله سبحانه: **{ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}** ورووا ما يفهم منه أن أبا تمام قلد هذا التعبير فقال لا تسقنى ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائى حتى انه يروى أن أحدهم أرسل إليه زجاجة يطلب منه فيها شيءئا من ماء الملام فقال أبو تمام حتى تعطيني ريشة من جناح الذل، قيل فاستحسنوا منه ذلك الأمر

وعندى أن ليس الأمر على ما ذكروه وان هذا التعبير كناية عن الرفق في معاملة الوالدين واخدهما باللين والرقة كما تقول واخفض لهما الجناح ذلا ولكن لما ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الإنسان وبين الذل إذ أن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه .. ومظهر

التواضع حتى يتظامن– أجازت هذه الصلة إضافة الجناح للذل– – لا على معنى الملكية فلسنا بحاجة إلى تشبيه الذل بطائر نستعير جناحه ولكنا بحاجة إلى استعارة الجناح للجانب وجمال ذلك هنا في أن اختيار كلمة الجناح في هذا الوضع يوحي بما ينبغي أن يظل به الابن أباه من رعاية وحب كما يظل الطائر صغار فراخه – وبما ذكرناه يبدو أن يبت أبى تمام لم يجر على نسق الآيه الكريمة فليس هناك صلة مابين الماء والملام تجيز هذه الإضافة ولا سيما أن إيحاء الكلمات في الجملة لاتساعد ابا تمام على إيصال تجربته الى قارئه فليس في سقى الماء ما يثير ألما ولو أنه قال لا تجرعنى غصص الملام لاستطاع بذلك أن يصور لنا شعوره تصويرا ادق وأوفى لما هاتان اللفظتان في نفس من المشقة والألم ... ·

وقد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء ومصدره كالجمع بين الناس والحجارة في قوله تعالى: **{ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين}** فهذا الجمع يوحي إلى النفس بالمشاكلة بينهما والتشابه وقد تكون العبارة بجملتها هي الموجهة كما تجد ذلك في قوله تعالى: **{ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار}** ·

أولا تجد هذه الثياب من النار موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب اليم فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر والقر فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران... لو بغير الماء صدري شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى·

ومن هذا الباب قوله تعالى: **{من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك الذي يخوف الله به عباده فتقوه}**، فان الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران هذه امثلة قليلة لما في القرآن من كلمات شديدة الإيحاء قوية البعث لما تتضمنه من المعانى، وهناك عدد كبير من ألالفاظ تصور بحروفها فهذه الظاء والشىءن في وقوله تعالى:

{ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران} والشين والهاء في قوله تعالى: **{ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا و هي تفور، والظاء في قوله تعالى{ أنذرتكم نارا تلظى}،** والفاء في قوله سبحانه: **{ بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا }**حروف تنقل إليك صوت النار مغتاظة غاضبة، وحرف الصاد في قوله تعالى: **{ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر}** يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة كما تحمل الخاء في قوله سبحانه: **{وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون}**، إلى أذنك صوت الفلك تشق عباب الماء، وألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان في سهولة ويسر ويعذب وقعه على الأذن في اتساق وانسجام...

قال البارزى في أول كتابه(أنوار التحصيل في أسرار التنزيل) أعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها احسن من بعض وكذلك واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معنى الجمل واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال انسبها وأفصحها واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل في علم الله، فلذلك كان القرآن احسن الحديث وأفصحه وان كان مشتملا على الفصيح والأفصح والمليح والأملح...

ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: **{ وجنى الجنتين دان}** لوقال مكانه وثمر الجنتين قريب لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجني والجنيتين ومن جهة أن الثمرلا يشعر بمصيره الى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل ومنها قوله تعالى**{ وما كنت تتلو من قبله من كتاب}** احسن من التعبير تقرأ وذلك لثقل الهمزة، ومنها {لا ريب فيه }أحسن من لاشك فيه لثقل

الإدغام ولهذا كثر ذكر الريب، ومنها {ولا تهنوا} احسن من ولا تضعفوا لخفته{ وهن العظم منى} احسن من(ضعف) لان الفتحة أخف من الضمة ·

ومنها(آمن) أخف من صّدق ولذا كان ذكره اكثر من ذكر التصديق و(آثرك الله)أخف من فضّلك(وآتى) أخف من أعطى، (وأنذر) أخف من خوَّف و(خيرلكم) أخف من (افضل) لكم والمصدر في نحو(هذا خلق الله (يؤمنون بالغيب) أخف من(مخلوق) و(الغائب)، (ونكح) أخف من تزوج لان فَعَلَ اخف تفعّل ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر، ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة الغضب والرضا والحب والمقت في أوصاف الله تعالى مع انه لا يوصف بها حقيقة لأنه لو عّبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام كأنه يقال يعامله معاملة المحب والماقت فالمجاز في مثل هذا افضل من الحقيقة لخفته واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ فان قوله{ فلما آسفونا انتقمنا منهم} احسن من فلما عاملونا معاملة المغضب أو(فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب)·

وهناك لفظتان أبى القرآن أن ينطق بهما ولعله وجد فيها ثقلا وهما كلمتا ا الآجر والأرضين أما الأولى فقد اعرض عنها سورة القصص فبدل أن يقول: **{ وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فهيئ لى ياهامان آجرا فاجعل لي صرحا لعلى اطلع إلى إله موسى)** قال: **{وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلى اطلع إلى إله موسى}**·

وأما الثانية فقد تركها في الآيه الكريمة**{ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما}** هذا ومما ينبغي الاشاره إليه أن القرآن قد اقل من استخدام بعض الألفاظ فكان يستخدم الكلمة مرة او مرتين وليس مرجع ذلك لشيء سوى المقام الذي يستدعى ورود هذه الكلمة وللقرآن

استعمالات يؤثرها فمن ذلك وصفه الحلال بالطيب، وذكر السجيل مع حجارة وإضافة الأساطير إلى الأولين وجعل مسنون وصفا للحمأ ويقرن التأثيم باللغو وإلا بذّمة ومختالا بفخور ويصف الكذب بأشر...

ووازن ابن الأثير بين كلمات استخدمها القرآن وجاءت في الشعر فمن ذلك انه جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر فجاءت في القرآن جزلة متينة وفي الشعر ركيكة ضعيفة، أما الآية فهي قوله تعالى**{ فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث أن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق }**

وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبي:

تلذ له المروءة، وهي تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة الا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه وفي آيه القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها في تركيب الآية،...

وهذه اللفظة التي هي إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى: **{أن ذلكم كان يؤذى النبي}** وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة ألا ترى انه قال تلذ له المروءة وهي تؤذى، ثم قال ومن يعشق يلذ له الغرام فجاء بكلام مستأنف وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي واضيف إليها كاف الخطاب فأزال ما بها من الضعف والركة قال((باسم الله ارقيك من كل داء يؤذيك)) .

وكذلك ورد في القرآن الكريم {إن هذا آخي له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة } فلفظة(لي) أيضا مثل لفظة يؤذى وقد جاءت في الايه مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لا تجئ لائقة كقول أبى الطيب أيضا:

تمسى الأماني صرعى دون مبلغه فما يقول لشئ :ليت ذلك لى

وهنا من هذا النوع لفظة اخرى قد وردت في القران الكريم وفي بيت من شعر الفرزدق فجاءت في القرآن حسنة وفي بيت الشعر غير حسنة وتلك اللفظة هي لفظة القمل أما الآية فقوله تعالى**{ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ايات مفصلات}** وأما بيت الشعر فقول الفرزدق:

من عزه احتجزت كليب عنده زريا كأنهم لديه القمّل

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت في الآية مندرجة في ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عنها وجاءت في الشعر قافية أي اخرا نقطع الكلام عندها، وإذا نظرنا إلى الحكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غُصنا في بحر عميق لا قرار له فمن ذلك هذه الآية المشار إليها فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم فلما وردت هذه الالفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظا الطوفان والجراد واخرت لفظة الدم آخراً وجعلت لفظه القمل والضفادع في الوسط ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة، وينتهى إليه آخرا ثم أن لفظة الدم احسن من لفظتي الطوفان والجراد و أخف في الاستعمال ومن اجل ذلك جئ بها ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الالفاظ ليس من القدرة البشرية...

وقال ابن سنان الخفاجى معلقا على قول الشريف الرضى:

اعزز علىّ بأن أراك وقد خلت عن جانبيك مقاعد العواد

إيراد مقاعد في هذا البيت صحيح إلا انه موافق لما يكره في هذا الشان لا سيما وقد اضافة إلى من يحتمل إضافته إليهم، وهم العواد ،ولو انفرد، كان الأمر فيه سهلا ، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء به، وابن سنان يشترط لفصاحة الكلمة ألا يكون قد عبر بها عن أمر أخر يكره ذكره...

قال ابن الاثير وقد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية وهى قوله تعالى:**{ وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال}** وكذلك قوله تعالى: **{و إنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وإنّا كنا نقعد منها للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا}** ألا ترى إنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح اضافته إليه، كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد: مقاعد الزيارة ، أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح وزالت الهجنة ، ولذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي الشاعر. ·

ومن ذلك استخدام كلمة(شىء) ترجع إليها في القرآن الكريم، فترى جمالها في مكانها المقسوم لها، واستمع الى قوله تعالى {وكان الله على كل شىء مقتدرا } وقوله تعالى:**{ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون}** وقوله تعالى**{ فعسى أن تكرهوا شىءئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا}** وقوله تعالى: **(إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** } إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي وردت فيها تلك اللفظة وكانت متمكنة في مكانها افضل تمكن وأقواه ووازن بينها في تلك وبينها في قول المتنبي يمدح كافورا: .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوَّقه شئ عن الدوران

فإنك تحس بقلقلها في بيت المتنبي، ذلك إنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها وتطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشئ الذي يعوق الفلك عن الدوران فكان هذه اللفظة لم تقم بنصيبها في منح النفس الهدوء الذي يغمرها عندما تدرك المعنى وتطمئن إليه، ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها، وسياجا لجلالها، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبها، في مكانها من الحسن وقد يقال أن كلمة الغائط من

قوله سبحانه: **{ وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا}** قد أصابها الزمن فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ولكنا إذا تأملنا الموقف وانه موقف تشريع وترتيب أحكام وجدنا أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى وصاغه في كناية بارعة فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض، كانوا يمضون إليه في تلك الحالة فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة، وإن شئت أن تتبين ذلك فضع مكانها كلمة (تبرزتم أو تبولتم) لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن وإنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم في هذا الموضع التشريعي الصريحالاستعارة في القرآن الكريم.

****

المصادر والمراجع

-**أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، شرح محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

-**الأسلوب**، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط / ٥

-**الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**، الجرجاني، تحقيق: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر.

-**الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧١.

-**البحث البلاغي عند العرب**، د. شفيع السيّد، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧.

-**بيان إعجاز القرآن**، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف. د. ت. مؤلفه: أبو سليمان حمد بن محمد ابراهيم الخطّابي.

-**البيان والتبيين**، الجاحظ، تحق: عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي بالقاهرة ط / ٣.

-**التعبير البياني**، رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيّد ، دار الفكر العربي ١٩٩٥.

-**التلخيص في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني، تحق: البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٣٢.

-**التورية وخلوّ القرآن الكريم منها**، محمد جابر فيّاض، دار المنارة جدّة ١٩٨٩.

-**جواهر البلاغة**، السيد أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-**خزانة الأدب**، البغدادي، تحق عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧.

-**دلائل الإعجاز**، الجرجاني، شرح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت ١٩٧٨.

-**سر الفصاحة**، ابن سنان الخفاجي، تحق: عبد المتعال الصعيدي طبعة صبيح.

-**الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠.

-**علم البيان في ضوء أساليب القرآن**، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف بمصر ١٩٨٥.

-**كتاب الصناعتين**، أبو هلال العسكري، تحق علي البجّاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧١.

-**الكناية والتعريض**، للثعالبي، تحق: عائشة فريد، دار قباء للطباعة والنشر ١٩٩٨ م.

-**المثل السائر**، ضياء الدين ابن الأثير، تحق: الحوفي، بدوي طبّانة مصر ١٩٦٠ . ١٩٦٢.

-**المجاز المرسل والكناية**، يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع عمان ١٩٩٨.

-**مفتاح العلوم**، السكّاكي، شرح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣.

-**مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقّاد والبلاغيين**، د.أحمد الصاوي، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٨.

****

الفهرست

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	توطئة	٤
٣	الفصل الأول: مقدمة في علم البلاغة	٧
٤	القصل الثانى: علم البيان	٣٦
٥	الفصل الثالث: نماذج تطبيقية	١٢٥
٦	المصادر والمراجع	١٦٧
٧	الفهرست	١٦٩

تمت بحمد الله